

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التعمير بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة السابعة عشرة
رمضان ١٣٩٢ - أكتوبر ١٩٧٢

المجموعة الثمانية
العدد ٦٠

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قُرْآنٌ كَرِيمٌ“

كلمة التوحيد

يصدر هذا العدد من مجلة «رسالة الإسلام» ، وقد أتمت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية منذ تأسيسها : خمسة وعشرين عاما ، من عمرها المديد بإذن الله ، في خدمة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، والتوحيد بين صفوفهم . ومن حقها في هذه المناسبة الكريمة أن تحتفل بما يسمى : العيد القضي ، كما تفعل الجمعيات والجماعات ، ولو احتفلت لم يكن في احتفالها بذلك ما يعاب ، ولجرت مع العرف المستبع لدى الناس . لكن الجماعة رأت أن تعدل عن هذه الصورة ، لأنها منذ نشأتها لم تحتفل بهذه الشكليات ، التي هي في الأعم الأغلب خداع للأبصار ، وانصراف عن الجدية ، ومنذ نشأتها وكسدت رجالها لإفناء ذواتهم في العمل الصامت الدائب ، لرفع شأن المسلمين ، وبث روح المودة والراحم بين طوائفهم ، ولم شملهم ، وإزالة ما قد يكون بينهم من نزاع ، إن هذه أممكم واحدة وأنا ربكم فاعبدون .

لقد كان أول من دعا إلى تأليف هذه الجماعة : العالم الحجة المجتهد ، الأستاذ محمد تقي القمي ، منذ قدم مصر في أوائل الأربعينات ، والتقى بصفوة رجالها وخيرة مفكرها الإسلاميين ، وكان التقريب بين الطوائف الإسلامية شغله الشاغل ، عاش معه ، وحمل لواءه ، وجاهد في سبيله ، وبذل ما يملك من قوة مادية ومعنوية في الدعوة إليه ، والتعريف به ، وجمع السادة الاعلام من علماء السنة والشيعة على كلمته . وما زال أبقاء الله للمسلمين ، يرعى فكرته ، ويتعهد غرسه ، ويوفر لإقامته وأسفاره على كل ما يحقق أهداف التقريب ، ويسكسب النجاح لدعوته .

ويمكننا أن ندرك مبالغ هذا النجاح ، ونقدره قدره ، إذا عرفنا أن هذه الدعوة المؤمنة الصحيحة ، قوبلت في مطلعها - من لم تحسن نواياهم - بالعداوة والبغضاء ، ورميت منهم ورمى المقبولون عليها بالتهم والظنون ، وتآلب عليها الفريقان اللذان يراد التقريب بينهما . وتبصير كل منهما بحقيقة الآخر وما يكن لصاحبه من أخوة ومودة ، فقد تشكك السفيون في دعوة يعنى بها ويقوم على أمرها شيعي ، وتشكك الشيعة في دعوة يحيط بالداعي الشيعي إليها سنيون ، يفرض أنهم أعداء الشيعة ، وأبعد الناس عن القول بما يقولون .

لقد كان ذلك من عجائب الأمور ، وكان حرياً أن يبيت الدعوة في مهدها ، ويحول بينها وبين الوصول إلى أفئدة المسلمين . لكن الجماعة خرجت على الناس منفرة نشأت ، سافرة مسفرة صريحة ناصعة ، باطنها كظاها ، وسرها كعلانياتها ، وليلها كنهارها ، وسارت في طريقها المستقيمة ، بعيدة عن الإعلامات الشخصية ، وعن الدعاية أو الزاني لكائن من الناس مهما يكن شأنه . قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وكان لذلك كله أثره الفعال في نفوس المخلصين من المؤمنين ، المحريصين على تعريف المسلمين بما صنعه أعداؤهم ، ووضع الحقائق أمام أعينهم ، ليتصوروا حال أنفسهم ، وما صاروا إليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض الشقاء ، فيعملوا على ما يخلصهم مما انزلوا إليه .

ومن أجل هذا المنهج الذي التزمته الجماعة ، منذ أعلنت إلى العالم الإسلامي بيانها الذي أقرته في أول جلسة عقدتها ؛ في ظل الإسلام وتحت راية القرآن ؛ وهو البيان الذي نشرته هذه المجلة في أول عدد أصدرته من ربيع قرن مضى . من أجل هذا المنهج أقبل أنصار التقريب أفواجا على دعوته البريئة المبرأة ، وانحاز إليها جمهور من كبار العلماء وأعلام أهل الرأي والمفكرين من أهل السنة ، ومن الشيعة الإمامية ، والزيدية . من كل بلد يدين أهله بالحنيفية السمحة .

ولعل من أكبر عوامل نجاح الدعوة ما عرفه الفريقان : السنيون ، والشيعيون من أنه لا يوجد سبب للتفرقة بين الإخوة المسلمين ، فهم جميعاً يؤمنون بالله رباً ، وبأصول الإسلام التي لا يسع مسلماً إنكارها ، وأنه لا خلاف بينهم إلا في الفروع الفقهية ، التي لا بد من وقوع الاختلاف فيها ، حتى في المذهب الواحد عند أحد الفريقين . وهو خلاف توسع ورحمة .

أما بعد ؛ فلقد كان التقريب أمنية غالية عزيزة ، يتطلع إليها خاصة الأمة منذ القديم ، في شوق ولهفة . لجمع كلمة المسلمين ، الذين جاء دينهم بالوحدة ، وبالتوحيد ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ، وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . .

ولعل في متابعة الدعوة إلى التقريب ، والحفاظ عليها ، وتحقيق أغراضها ، وتبصير المسلمين بها ، في كل مناسبة ، ما يعد أعظم احتفال بعيدها الحالي ، وبكل عيد يحى به بعد إن شاء الله تعالى ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . . على الجندی

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

والأهداف الأولى للإسلام

— ٣ —

الوحي والرسالة - سر إنكارهما ودليل ثبوتهما - مواضع هذا الدليل في القرآن الكريم - المناقشة في الوحي فرع الإيمان بالله - شهادتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد - الاكتفاء بالعقل - الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين - الرد عليها - الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين - الرد عليها - القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله - سر الاكتفاء بدليل إجمالي - أسلوب السورة مع المنكرين تلقيني إنذارى - سورة الأنعام وبيان الحقيقة في شأن الرسول - مهمة الرسول تنحصر في التبشير والإنذار - إنما يستجيب الذين يسمعون - إرشاد الرسول إلى المسلك النويم مع المخالفين والموافقين - تسليمة الرسول .

الوحي والرسالة :

كما تحدثت سورة « الأنعام » عن الألوهية والربوبية ، ولفقت الناس إلى مظاهرها في الخلق والتصرف والتدبير المحكم ؛ تحدثت عن حقيقة ثانية تنبئ على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدي عباده ويرشدهم إلى ما تصالح عليه أمورهم ، وتقوم عليه سعادتهم في دنياهم وأخراتهم ، فإن ربوبيته - جل شأنه - ليست قاصرة على ما هيا من أسباب الحياة المادية ، وإنما هي ربوبية ذات آثار معنوية روحية كذلك ، ولعل هذا هو المعنى المراد في قوله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، فأعطاؤه الخلق كل شيء هو مظهر النعم المادية التي أنعم بها عليهم ، حيث منح لهم ما في السموات وما في الأرض ،

وهدايته هي مظهر النعم الروحية التي تفضل بها عليهم ، حيث وهبهم العقل وأسبابه العلم ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وسن لهم الشرائع .

عُنيّت سورة « الأنعام » بهذه الحقيقة ، كما عُنيّت بالحقيقة الأولى ، فتحدثت في كثير من آياتها عن الوحي والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحي وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول ، وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسائل الإلهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التي رسمها الله للرسول ، وما ينبغي أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه .

ومن الخير أن نعرض لهذه الجوانب التي عرضت لها هذه السورة الكريمة ، متعرفين إلى أسلوبها الذي عالجتها به ، منتفعين بهديها فيه .

سر إنكارهما ودليل ثبوتها :

فن ذلك أنها لخصت قضية الوحي والرسالة في صدر آية من آياتها ، هي الآية الحادية والتسعون ، يقول جل شأنه : « وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » ، فهذه الجملة على وجازتها تشتمل على ما يأتي :

(١) تسجيل كفر الكافرين بهذا الشأن الإلهي الذي هو إنزال الوحي على البشر .

(٢) الإشارة إلى شبهتهم الأساسية التي يتوارثونها خلفاً عن سلف في إنكار هذه الحقيقة ، وهي استبعادهم حصول ذلك ، أو زعمهم إغناء العقل عنه .

(٣) إجمال الدليل الذي يُردّ به عليهم ، وهو دليل صالح لكل عصر ، ولكل ثقافة ، لأنه دليل عقلي فطري فيه ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

مواضع هذا الدليل في القرآن الكريم :

ولعل من المفيد أن نذكر في هذا المقام أن هذه العبارة : « ما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره » جاءت في ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم :

الموضع الأول : هذا الموضع من سورة الأنعام ، وقد أتبع بقوله تعالى :
 « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، وهو مقابلة
 لسلبهم العام حيث قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ، بالإثبات الجزئى لرسالة
 مشهورة معروفة ، وفيه بيان لوجه الحكمة فى الإيحاء بهذه الرسالة ، حيث قصد
 بها أن تكون نوراً وهدى للناس ، ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى القرآن الكريم فى
 قوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى
 ومن حولها ، وهى إشارة إلى حاضر شاهد بين أيديهم ، مصدق لما سبقه ، مع بيان
 الغاية منه ، والحكمة فى إنزاله ، وهى إنذار أم القرى ومن حولها .

والموضع الثانى : هو قوله تعالى فى سورة الحج : « ما قدروا الله حق قدره ،
 إن الله أقوى عزيز ، الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ،
 وفى هذا الموضع جاءت العبارة نفسها معقبة بإثبات قوة الله وعزته ، وأن اصطفاة
 الله الرسل من الملائكة ومن الناس شأن من شئونه .

والموضع الثالث : قوله تعالى فى سورة الزمر : « وما قدروا الله حق قدره
 والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى
 عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من
 شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها
 ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ،
 وفى هذا الموضع تفصيل لبعض مظاهر القوة والعزة التى أثبتت لله بحجة فى الموضع
 الثانى ، ثم ينتهى الكلام بذكر المحيى بالنبيين والشهداء والقضاء بين الناس بالحق .

وهكذا تتلاقى العبارة التى صدر بها الكلام فى هذه المواضع الثلاثة :
 « وما قدروا الله حق قدره » ، مع ما جاء تالياً لها فى كل موضع ، ويكون هذا
 التلاقى على معنى واحد مشترك هو إثبات أن الله يوحى ، لأنه قادر قوى ، ولأنه
 حكيم عليم .

المناقشة في الوحي فرع الإيمان بالله :

بعد إجمال القول فيما تفيد هذه الجملة ، تتبعه بشيء من التفصيل فنقول :

إن قضية الوحي والرسالة من القضايا العويصة التي شغلت الناس قديماً وحديثاً ، لما لها من أهمية قصوى في حياة البشر ، إذ يرتب عليها مبدأ الإيمان بالآديان ، فيعترف أهل الأرض بتوجيه السماء ، أو مبدأ اللادينية ، التي لا تعترف بهذه الصلة ولا ترتبط بها ، وترى أن الإنسان سيد نفسه ، وسيد هذا الكون الذي يعيش على ظهره . لا يتلقى في شأن من شئونه وحياً إلا من عقله وتجاربه .

ومن الواضح أن هذه القضية تأتي في الترتيب العقلي بعد الإيمان بالآلوهية ، فمن آمن بأن للوجود إلهاً مستحقاً للعبادة متصفاً بصفات الكمال والتزيه ؛ أمكن أن يناقش في الوحي والرسالة ، إذ الرسالة تقتضي وجود المرسل ، والوحي يقتضي وجود الموحى ، وإذا انتفى الإيمان بمصدر الوحي والرسالة ، فالكلام فيهما عبث لا طائل تحته .

وقد علمنا في الفصل السابق أن الناس في قضية الآلوهية صنفان : صنف جاءه الضلال من أنه أشرك مع الله آلهة أخرى ، فهو معترف بالله ولكنه يرى نفسه أقل من أن يتصل به مباشرة ، فهو يعبد الشركاء ليقرّبوه إلى الله زلفى ، وصنف أبعد من هؤلاء في الضلال ، وهم الذين ينكرون الإله ويزعمون أن هذا الكون وجد بدون موجد ، وأنه يسير بنفسه دون مدبر ولا مصرف .

وعلمنا أن القرآن الكريم يثبت الآلوهية ، بإثبات مظاهر الربوبية ، وأن هذا الإثبات يصلح للصنفين جميعاً ، فهو يصلح للذين يتخذون مع الله إلهاً آخر ، حيث يفيدهم أن الرب الذي خلق ، ودّ جعل ، - أى أنشأ وصرف - واحد ، فيجب أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، وهو يصلح أيضاً لمنكرى الربوبية إطلاقاً ، من حيث إنه يناشد فطرتهم الكامنة ، وعقولهم التي لا يمكن أن تقبل محض المصادقة التي يزعمونها مع هذا الخلق الكامل ، والتدبير المحكم ، والشواهد الناطقات .

والصنف الثاني مع هذا قلة من الناس في كل عصر ، لا يؤبه لهم ، ولا يمكن أن يناقشوا أو يساق لهم دليل غير الدليل الكوني الذي يصرون على إنكاره ، فلا حيلة فيهم غير تركهم وإهمالهم حتى تفرغهم القوارع التي تهذب نفوسهم وعقولهم فتوجههم إلى تدبر الآيات والبيانات ، أو حتى تنقضى حياتهم فيعودوا إلى ربهم فيعترفوا بما كانوا يمحذون .

لهذا كله بنيت جميع العقائد الدينية وأدلة إثباتها على الأساس الأول والحقيقة الكبرى ، وهي وجود الله الخالق المتصرف المستحق للعبادة والطاعة ، ومن بين هذه العقائد ، أو هذه الحقائق ، حقيقة الوحي والرسالة ، فالبحت فيها مبنى على الإيمان بالله ، وبما له من صفات الكمال والتزيه .

وعلى هذا الأساس جادل الناس قديماً وحديثاً في قضية الوحي والرسالة ، وجودها فيها .

شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد :

والقرآن الكريم يبين لنا في كثير من آياته أن هناك شبهتين قديمتين يقوم عليهما دائماً إنكار المنكرين :

إحداهما : أن ذلك مستبعد أو مستحيل ، إذ كيف يتصور العقل في زعمهم أن يتصل الخالق بالخلق فيوحي إليهم بأمره أو كلامه ، فالخالق له صفات التي منها تزهه عن المسكان والصوت ، والمخلوقون لهم صفاتهم التي منها أنهم محدودون قاصرون لا يستطيعون أن يتلقوا الكلام والأمر إلا من مثلهم ، وقد جوبهت الرسالات الإلهية بهذه الشبهة منذ العهود الأولى ، فنوح يقول لقومه : « أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحون » . وهود يقول لقومه عاد هذه العبارة نفسها : « أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، والملا الكافرون من قوم صالح يقولون للذين آمنوا به : « أنعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، وهكذا كل رسالة . حتى ليقول القرآن الكريم

في الرسل عامة : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » . « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً » . ويقول في شأن خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » . « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » . الخ .

وقد جاء هذا الإنكار المبني على الاستبعاد في سورة الأنعام حيث تقول : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » . « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، إلى غير ذلك من الآيات .

الاكتفاء بالعقل :

الشبهة الثانية : أن الله تعالى وهب الإنسان العقل ، فهو كاف لهدايته وإرشاده ، وليس بالناس معه من حاجة إلى وحى أو رسول ، هكذا يزعمون .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الشبهة من شبه المستكرين فيما يبينه من حكمة لإرسال الرسل في مثل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . « ثلثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » .

ومن ذلك في سورة الأنعام قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » . « ثم آتينا موسى

الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء. وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واطقوا العلمكم ترحمون ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة .

بعد هذا يسهل علينا أن نفهم أن قوله تعالى : « وما قدرُوا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » ، فيه بيان لإنكار المنكرين ، وذلك مصرح به فى قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ، وفيه بيان لأن سبب هذا الإنكار أنهم لم يقدرُوا الله حق قدره ، حيث كان منهم من استبعدوا هذا على قدرة الله ، مع أنه غير مستحيل بل ممكن ، وكان منهم من نازعوا فى أنه أمر تقتضيه الحكمة ، مع أنه هو عين الحكمة والمصلحة والرحمة ، وفيه إجمال للدليل الذى يرد به عليهم ، حيث يفهم منه أنهم لو قدرُوا الله حق قدره - أى عرفوه حق معرفته ، وأدركوا مدى قدرته وحكمته - لما نازعوا فى هذه القضية .

الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين :

بعد هذا يحسن بنا أن نقف وقفة يسيرة مع المنكرين لهذه الحقيقة الإلهية من ملحدى عصرنا ، لنعرف فى أى واد يهيمون ، وكيف ننتفع بما أرشدنا الله إليه من هذا الدليل القطرى فى الرد عليهم ، والتحذير من فتنهم وما يشيرون من شكوك .

إنهم يصورون الوحى تصويراً عالياً كما يزعمون ، فيقولون : إن النبى ما هو إلا إنسان مفكر له عقلية تخالف عادة عقلية أهل عصره ، وهو لا يظهر إلا فى عصور الفساد والاضطراب والبطى والطغيان ، فيثور فى نفسه على هذه الأوضاع ، ويشتد مقتها وتأمله فى طريقة التخلص منها ، ثم يفرض به ذلك التأمل العميق ، والتفرغ الطويل ، الى حالة يعتقد معها أن العناية الإلهية لا يمكن أن تدع أمور الناس تجرى هذا المجرى ، وأنه لا بد للناس من منقذ ، ثم ينتقل الى مرحلة أخرى

هي مرحلة التطلع الى أن يكون هو هذا المنقذ ، ثم الى مرحلة الاعتقاد بأنه اختيار فعلا لهذه الرسالة ، وتمتلىء نفسه بهذه العقيدة حتى يتصور أنه يسمع فيها وحياً ، وأن ملكاً يقاديه بها ويرأوجه ، وهو ليس بكاذب فيما يروى عن هذا الملك ، لأن خياله يحسم له الأمر ولا يترك عنده ذرة من الشك فيه ، ثم يستغرق في اعتقاد ذلك حتى يثبت في نفسه ، ويوجه إرادته وجميع قواه الى تحقيق ما اعتقد أنه رسالته التي بعث بها ، ويجد الى جانبه من يؤمن به ويصدق كل ما يرويه عن عالم الغيب ، ويخضع لأمره ونهيه ، ويزداد هؤلاء المؤمنون يوماً بعد يوم ، وتقوم الى جانبهم معارضة فتقويمهم وتجعلهم يتكاثفون حوله مخلصين غير مترددين ولا شاكين في أنهم على الحق ، فهذا هو ما يسميه الناس وحياً ورسالة ، وهذا هو تصوير العلم - يريدون علم النفس وما له من قواعد - .

الرد عليها :

ومن الواضح أن هذا الذي يذكرونه ما هو إلا ظنون ومزاعم لا تستند الى دليل عقلي تطمئن إليه القلوب ، ويرضاه المنصفون المحايدون ، وأن الذي حلهم على ذلك هو استبعاد لإزال وحى من الله على من يصطفي من عباده ، فهي نفس التشبه التي كانت تراود سلفهم من أهل الشك والإنكار في عهود الرسالات وبعدها ، غير أنهم فلسفوها واتمسوا الفروض لها والتعليل لأسبابها ودوافعها ، كأنها ظاهرة من الظواهر المادية التي تعودوا أن يطبقوا عليها هذا المنطق الخيالي الفرضي .

سنبينا في الرد على هؤلاء وبيان باطلهم أن نحجهم بما حج الله به المنكرين قبلهم ، فنقول لهم : على أي أساس بنيتم هذا الاستبعاد الذي أفضى بكم الى التماس العلل والفروض ؟ وأيُّ بُعد في أن يوحى الله الى أحد من خلقه بوحى ؟ وهل كل ما غاب عنا إدراكه وعجزت حواسنا عن تفهمه تنكره عقولنا ؟ إننا نكشف كل يوم أسراراً في هذا الكون ما كنا من قبل نتصورها ، ثم تصبح على غراتها أموراً معروفة مألوفة ، وإننا نرى الهبات الإلهية لا تقف عند الحد الذي قبله ادراكنا

المحدودة ، فكم رأينا من عباقرة أفذاذ لا نظير لهم في بيئاتهم ، ولا يجود التاريخ
 بثلمهم إلا في الحين بعد الحين ، وكم رأينا من أفراد أوتوا قدرة عجيبة في ناحية
 من النواحي لا تعرف أسبابها ، وأنا قد رأيت بنفسى غلاماً من إحدى قرى
 البحيرة ، في مصر ، كانت له موهبة حسابية عجيبة ، فهو يستطيع - مع أنه عاى
 جاهل - أن يستخرج حاصل ضرب عددين كل منهما مؤلف من عشرة أرقام في
 وقت يسير ولا يخطئ في ذلك ، ويقال له إن فلاناً ولد في ساعة كذا من يوم كذا
 من عام كذا ، فاعمره بالدقائق فيجيب الإجابة الصحيحة في نحو دقيقة ، بينما يعجز
 الحاسبون عن استخراج هذه الإجابة إلا بعد حساب طويل ، ولست أريد أن
 أقول إن النبوة والرسالة شيء من ذلك أو يشبه ذلك ، ولكن أضرب هذا مثلاً
 لما أودعه الله الإنسان من قوى ، وما يجود به على بعض عباده من مواهب
 لا يعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ، فأنه قادر وهاب ، ولا حد على قدرته ، ولا
 مانع لما أعطى ، فهل يعجزه سبحانه أن يهيء بشراً أو ملكاً بقوة فوق العادة
 يستطيع معها أن يتلقى عنه أو عن ملك تلقى عنه ؟ إن الذى يقول باستحالة ذلك
 أو باستعباده ينسى أن خلق الإنسان وتكوينه كله عجب ، ويكفى أن يفكر الإنسان
 في أنه كيف يفكر ، ليعلم أن تفسيره من أعظم الآيات على قوة خالقه وقدرته
 وجوده الفياض ، ثم من ذا الذى كان يظن أن في الذرة هذه القوة الكامنة ، وأن
 في بعض رمال الصحراء التى ظلت ملايين السنين مهملة تذروها الرياح ؛ ما عرف
 لها من الخواص وما تصلح له مما هدى الله إليه أهل العلم الحديث ، ثم من ذا الذى
 يعرف مدى ما يصل إليه علم الناس وقدرة الناس في المستقبل ، وهم خلق محدود
 العلم والقدرة ، وفيهم يقول الله عز وجل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .
 « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » . فهل يجوز أن يصدر من هذا
 الإنسان المحدود استبعاد شيء من الممكنات العقلية على الله ، وقد مكنته الله من
 الأرض ومن الحياة هذا التمكن ؟ .

وبذلك يجب استبعاد هذا الاستبعاد ، ويجب ألا ينسب للعلم أو العقل القول

به ، أو الميل إليه .

الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين :

ولننظر بعد ذلك في الجانب الآخر من الشبهة على الوحي ، فإن بعض الناس يقول إن الله تعالى خلق الإنسان وألهمه العقل ليزي به الخير من الشر ، والنافع من الضار ، وما ينبغي أن يسلكه من السبل ، وما ينبغي أن يتركه ، وبالعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان الأعجم ؛ واستطاع على ما به من الضعف الجسدى أن يسخره وبطرقه ، كما استطاع أن يحوب آفاق الدنيا ، وأن ينفذ بنور بصيرته إلى كل شيء ، وما هو ذا قد فرغ أو كاد من الأرض وما عليها ، واتجه بآماله إلى السماء يتطلع إلى أن يعلم عليها ويدرك أسرارها ، ويقتحم كواكبها ، فماذا بقى له حتى يحتاج إلى الوحي أو يستمد الهدى من كتاب ينزل أو نبي يرسل .

هل الأرض محتاجة إلى هداية السماء وفيها هذا القبس العلوى من نور الله ، وهو العقل ؛ إن هؤلاء الذين قادوا البشرية في عهود الظلمات وسماغم الناس الأنبياء أو الرسل ، ما هم إلا عقلاء ممتازون قد صفت جواهر عقولهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم ، فرأوا بعين بصيرتهم ما لم يره الآخرون . ووفروا زماناً طويلاً كان على الأجيال أن تقطعه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه ، وتعلم ما علموا ، فلا شك أنهم نبغاء من نوابغ العقول ، ولا شك أن ما رسموه لأمتهم هو ثمرات طيبة من أركى الثمرات العقلية ، ولا شك أن ذلك كله هبة من السماء ، ولكن لا على معنى أن ملكاً أوحى ، أو كتاباً نزل ، أو رسولا بعث ، بل على معنى أن الله وهب هذا الإنسان العقل وجعله نوراً من نوره ، وما الكتاب إلا سطور من هذا النور ، وما الرسول إلا العقل فهو للناس بشير ونذير .

الرد عليها :

هكذا يتول منكرو الوحي اكتفاء بالعقل ، وبتعبير أدق : هذا ما يمكن أن يتولوه ، أو ما يعتبر به عن شبهتهم ، فهل أصابوا شاكلة الصواب ؟ كلا لأنهم أحسنوا الظن بالعقل الإنسانى حتى جعلوه رسولا هادياً ، وقبساً منيراً ، وجعلوا أثره كتاباً وافياً ، ودستوراً شافياً ، وهذا إيمان بالعقل ، وإن العقل لجدير بأن يكرم حقاً ،

وبه كان تكريم الإنسان ، ولكننا شهدنا كيف تختلف العقول وتتفاوت ، وكيف يرى بعضها الشيء خيراً ويراه بعضها شراً ، وكيف تختلف لديها موازين الفضيلة والريزية ، وكيف تتحكم فيها الأهواء والشهوات ، فتلون أحكامها ، وتؤثر في إدراكها للأمور ، وكيف يعميها التعصب فترى الحق باطلاً والباطل حقاً ، وكيف تخدعها العادة المألوفة كما تخدع الحواس الظاهرة ، فتخيّل لها الأوهام حقائق ، فهل يترك الله خلقه لعقولهم فحسب ، أو تقتضى حكمته ورحمته وربوبيته أن يهدى هذه العقول ، ويحكم على اتجاهاتها المختلفة حكمه الفاصل بين ما هو رشد وما هو غي في ثوب رشد ؟ هل يترك الله الإنسان لعقله فحسب فيصطدم الناس بعضهم ببعض في الحقائق والأحكام والنوازل كل يحكم فيها عقله وما رآه . ويعتقد أنه المصيب وغيره المخطئ . وأنه المحق وغيره المبطل ، أو الخير كل الخير ، والحكمة كل الحكمة ، أن يضبط بالوحي والرسالات ما هو حق وما هو باطل ، وأن يلزم الناس حكماً فصلاً يدرأ الخلاف ، ويقضى على الخصومات ، ويقر الأوضاع السليمة ؟

إن الناس متساوون ، وقد أُلّف المتساوون ألا يخضع بعضهم لبعض خضوعاً قلبياً صاعقاً ، فلا بد من قوة عليا يضعون لها جميعاً ، ويرضون بها جميعاً ، قوة تحسم وتحكم ، وتقبل مقاييسها ، ويرجع إليها المختلفون ، ولا بد أن تكون هذه القوة العليا إلهية ، فالإنسان خاضع للإله الذي خلقه ، خاضع له جسماً ومادة وروحاً . فيجب أن يكون خاضعاً له توجيهاً وتشريعاً ، وبغير ذلك يكون الإنسان متعدياً طوره ، خارجاً على طبيعته ومقتضى خلقته ، وبشريته . ولو ترك الناس لعقولهم ولم تُهد هذه العقول بالشرائع لاختلفوا اختلافاً كثيراً ، ولما كادوا يلتقون على مذبح في الحياة يدينون به ويلزلون عن حكمه ، وهذه هي المذاهب الإنسانية التي ابتكرتها العقول تحير الناس ، وتقيم المشكلات ، وتعجز عن الحلول ، وتدفع الحروب المدمرة ثمرات البشرية من أرواح وأموال ومفاسد ، فهل أغنى عن الإنسان عقله ، وهل سعت البشرية بعد انطلاقها من دائرة الدين والوحي والرسالات إلى دائرة النازية أو الفاشية أو الشيوعية أو الرأسمالية ؟

والخلاصة أن العقل كما يقولون جوهره نورانية ، وهبة إلهية ومهبها الله عباده وجعلهم بها أكرم خلقه ، كل ذلك مسلم ولا شك فيه ، ولا ينبغي أن ينكر العقل أو يرفض حكمه ، ولكن العقل مع ذلك محدود لأنه مخلوق ، وكل مخلوق محدود ، فيجب ألا نتجاوز به حدوده ، وإلا كنا مخالفين له .

وإذن حكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، تقتضيان ألا يترك الإنسان لمجرد العقل ، وأنه لا بد للأرض من هداية السماء ، ولو قدروا الله حق قدره ، وعرفوه حق معرفته ، لما أنكروا هذه الحقيقة .

القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله :

وشئ آخر في هذا المقام يجب أن نجليه حتى ينكشف كل ظل من ظلال الشبهة على الوحي والرسالة ، فإني لأعرف أن كثيراً من الناس تحوكت في صدورهم بمعض الشبهة ولا يستطيعون أن ينفصروا بها ، أو يسألوا عنها ، إما حياء وإما خوفاً ، فنالحظ أن نكاشفهم بما في نفوسهم لنجلوه عنهم ، ونظهر منه قلوبهم ، وبالله التوفيق .

إن بعض الناس يقول : هبنا سلمنا أن الوحي ممكن ، وأنه متفق مع الحكمة ، وأن الإنسان لا يستغنى بالعقل ، فهل هذا يدل على صدق الرسل الذين ادعوا أنهم جاءوا بالرسالات ؟ هل هذا يدل على أن موسى وعيسى ومحمد وغيرهم كانوا رسلاً في الواقع كما ادعوا ؟ إن جواز حصول النبوة لا يستلزم أنه وقع فعلاً ، فيبقى أن يقوم الدليل على أن هذه النبوات واقعة .

ونقول لهؤلاء : أما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبتت بمعجزاته القاطعة الباقية التي هي هذا القرآن الكريم ، فلا يمكن لعقل من العقول أن يجوز صدور هذا الكتاب المحكم من شخص نشأ يتيماً فقيراً أمياً في بيئة مشرقة جاهلية لم تعرف بما عرفت به الأمم الكبرى في عصرها من العلوم والنظم ، وقد كان العالم في عهد هذا الأئمة اليتيم مضطرباً أشد الاضطراب ، وكان رجال الأديان فيه مختلفين أشد الاختلاف ، فكانت البيئة القريبة لهذا الأئمة بيئة شرك ووثنية ، وكانت البيئة البعيدة منه بيئة خلاف وتنافس على السلطتين : الدينية والزمنية ،

فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذى اشتمل على مبادئ الإصلاح العالمى كلها ،
والذى لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها ،
إن القرآن الكريم قد تحدى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا ، وكذلك أيضاً
تحدى الزمان كله بخلوده وصحته ، وأنه لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
وتحدى الناس فى كل عصر ، فلم يستطع أحد أن يزعم أنه من وضع البشر ، اللهم
إلا الذين لم يتذوقوه ولم يتدبروه ، أو الذين ينكرون الحقائق الواضحة تعصبا عليها .
وإذا ثبت بهذا الذى أجملناه أن القرآن الكريم دليل على صدق محمد ، وآية
إلهية من الله للناس ، فإن جميع النبوات تثبت به : نبوة محمد ، ونبوة الأنبياء قبل محمد .
هذا إجمال ، أما تفصيل الكلام فى دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه
وآله وسلم فى أنه مرسل من ربه ، فإنه يطول ، وليس هذا موضعه ، فإنما أردنا
هنا أن نثبت الوحى ، وأن نبين أن ذلك يؤخذ من قوله تعالى : « وما قدرُوا الله
حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

سر الاكتفاء بدليل إجمالى :

وقبل أن ننقل من هذه النقطة : ينبغى أن نتعرف السر الذى جعل القول
فى دليل الوحى والرسالة يأتى بجملاً مركزاً على هذا النحو ، فنقول :
أجملت سورة « الأنعام » هذه الحقائق فى صدر الآية التى ذكرناها ، وكان
هذا الإجمال أسلوباً مقصوداً لم يأت عفواً ، وذلك لأن السورة قامت على أساس
أنهم قوم جاحدون ، لا تجدى معهم الآيات ، ولا تنفع فى إقناعهم الدلائل ،
فأنه سبحانه وتعالى يقول فى أوائلها : « وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا
عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيتهم أنباء ما كانوا به
يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكثناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم
وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم
وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلسوه بأيديهم
لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين . وقالوا لو لا أنزل عليه ملك ، ولو

أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون .

فالسورة إذن أمام قوم يرفضون الدلائل في إصرار ، ويتحدون في استكبار ، ولا يعابون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويطلبون ما لا يمكن أن يكون ، بينما ينكرون ما هو ممكن وما هو حاصل فعلا : يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يؤيده وينذر معه ، بل يطلبون - كما في آيات أخرى - أن ينزل عليهم الملك لا أن ينزل مع الرسول لحسب ، بل وصل بهم الأمر إلى أن طلبوا رؤية الرب جل وعلا ، وفي سورة الفرقان تسجيل هذين المطلبين عليهم حيث تقول : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . »

وهم في هذا متعنون مستهزئون ، لأن الملائكة إذا نزلت كان في نزولها نهايتهم وهلاكهم ، لأنهم لا يطيقون هذه الرؤية ولا يتحملونها بمقتضى تكوينهم البشري ، ولهذا تقول سورة الأنعام : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، وتقول سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للبشرين يقولون حسجراً محجوراً . »

هذا مع كونهم يستبعدون على بشر أن يؤتبه الله الوحي والنبوة ، ويعتقدون الشبهة القديمة القائلة : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأنكم إذن لخاسرون ، فهم متناقضون في تقدير قيمة البشر ، تارة يرفعون أنفسهم إلى درجة يطلبون معها أن تنزل عليهم للملائكة أو يروا ربهم ، وتارة يقررون أن البشر أقل من أن يوحى إليهم ويتلقوا عن الله بوساطة الملك ، وإنما جاء تناقضهم من أنهم عابثون مستهزئون مصررون على الإنكار غير عابثين بما يقعون فيه من خلط ، وقد بينت السورة في هذه الآيات أن الله تعالى لو قضت حكمته بإجابتهم إلى ما يطلبون من إنزال ملك مع الرسول ، أو جعله الرسول ملكا ، لما أنزله إلا في صورة رجل لما ذكر

من عدم الاستعداد البشرى لرؤية الملك على هيئته ، وحينئذ يلبس عليهم الامر فيظنونه بشرا ، ولا يزالون يكررون طلب إرساله ملكا .

أسلوب السورة مع المنكرين تلقيني إنذارى :

إن هذا الموقف الذى يقفونه من الرسالة يستدعى ألا يناقشوا أو يجادلوا ، لأن النقاش والجدال مع المعاندين إنما هو جهد ضائع ، وعبت فى غير طائل - تعال الله عن ذلك علواً كبيراً - ولهذا تحمل السورة دليل الوحى والرسالة هذا الإجمال الذى تحدثنا عنه ، وتسير معهم سيرة الإنذار والتوعد ، وتلقن الرسول ما يقوله لهم مرة بعد مرة بلفظ : « قل ، ولا تركه يسترسل معهم فى حجاج ، أو يستمع إليهم فى اقتراح أو اشتراط ، أو يحزن لما يقولونه عنه وعن دعوته ، أو لما يؤذونه به ، أو يترقب من الله أن ينزل عليهم الآيات المؤيدة له ، أو أن يجعل لهم ما يستعجلون من العذاب ، تازم السورة فى كثير من آياتها هذا الأسلوب ، أسلوب أمر الرسول بلفظ : « قل ، حمها للأمر ، وتلقينا الرسول ما يجب أن يقول : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله . « قل أغير الله أنخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطمم ولا يعطم ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لآنذركم به ومن بلغ ، أنسكم للشهادون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو الله واحد . « قل أرأيتم إن أناكم عذاب الله . « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم . « قل لا أقول لكم عندى خزان الله . « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذنب وما أنا من المهتدين ، قل إني على بينة من ربي وكذبتكم به ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يقضى الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم ، إلى غير ذلك من الآيات المندرة الملقية بالقول تلو القول وجوهم ،

والمفضية إليهم بالحقائق والعوقب إرهاباً لهم ، وتخويفاً لكل من سار على خطتهم ،
ذلك بأنهم أهل عناد وإصرار ، واستهزاء واستكبار .

هذا هو بعض السر في إجمال الحجة ، والاكتفاء بتقريرها موجزة مركزة ،
مع توجيه الأسلوب على هذا النحو التلقيني الإنذاري الرهيب ، وسنبين فيما بعد
أن لهذا الأسلوب سرا آخر يضاف إلى هذا السر .

سورة الانعام وبيان الحقيقة في شأن الرسول :

وننتقل بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التي عرضت لها سورة الانعام .
كما يتصل بالوحي والرسالة ، فنقول :

كما وجد في الناس من ينكر الوحي والرسالة ، ويرى أن البشر ليسوا مستعدين
لتلقي كلام الله ؛ وجد فيهم أيضاً من يصرف في تضخيم شخصية النبي ووظيفة الرسول
حتى ليكاد ينسى أنه بشر ، فترام يفسبون إليه علم الغيب ، وترام يعجبون لأكله
الطعام ومشيه في الأسواق ، وترام يتطلبون فيه أن يكون غنياً عنده من الخزائن
ما لا يتفد ، وأحياناً يطلبون منه الإتيان بالمعجزات ، ولعلمهم أيضاً لا يتصورون
فيه أن يفضب أو يمرض أو يحزن أو يهزم في الحرب ، أو يردّ عن أمل من آماله ،
إلى غير ذلك من العوارض البشرية .

وهكذا يقف هؤلاء من النبوة موقفاً مناقضاً تمام المناقضة للأولين الذين
ينكرونها ، فبينما يغالى هؤلاء في النبي حتى يوشكوا أن يخرجوه عن بشريته ؛
يغالى أولئك في إنكار ما منحه الله من قوة غير عادية تمكنه من تلقى الوحي عنه
ووعيه وتبليغه للناس .

والله سبحانه وتعالى يرشد عباده إلى واقع الأمر وحقيقته ، ولا يرضى منهم
أن يتجاوزوا هذا الواقع بالميل إلى جانب هؤلاء أو أولئك ، وقد كان لسورة
الانعام عناية واضحة بهذا الأمر ، فهي تبين شأن الرسول تارة على سبيل السلب
بنى شيء عنه ، وتارة على سبيل الإيجاب بإثبات شيء له ، وتارة على سبيل الحصر
الجامع بين النفي والإثبات ، وأحياناً بتصوير ما ينتاب الرسول من العوارض

البشرية : كالحزن والآلم وضيق الصدر والحرج ومحاولة المجاملة لجذب الأقوياء انتفاعاً بهم ، ووشك الميل إلى بعض ما يريدون ، وأحياناً بتعليمه ما يردُّ به على المبطلين ، وإرشاده إلى السلوك السليم في معاملة المخالفين والموافقين ، وتسليته واستلال بواعث اليأس الذي يتعرض له بحكم بشريته ، إلى غير ذلك مما يريد الله به أن يبين للناس منزلة النبي وواقع أمره ، حتى لا يخرجوا به عن وضعه ، وحتى لا يخطئوا كما خطئ الذين زعموا رسولهم ابن الإله ، ثم لم يكفهم ذلك حتى كان فيهم من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

مهمة الرسول تنحصر في التبشير والإنذار :

تقول سورة الأنعام : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسمهم العذاب بما كانوا يفسقون ، قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ، ان أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون . »

بينت هذا الآيات مهمة الرسل ، وأنها لا تتعدى التبشير والإنذار : التبشير بأن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الذين يأمنون فلا يصيبهم خوف ، ويفرحون فلا يصيبهم حزن ، والإنذار بأن الذين كذبوا بآيات الله يصيبهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عما رسم الله من حدود في العقائد والأحكام ، فالرسول إذن لم يأت بشيء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، معرف به ، لا مثبت ولا مفقود ، وليست له قوة وراء هذا الاستعداد للتلقى والتبليغ ، لم يعطه الله خزائنه ، ولم يجعلها عنده يتصرف فيها كما يشاء ، حتى يطمع طامع في الانتفاع المادى عن طريقه ، أو يخاف أحد الحرمان المادى إن حاد عن هذا الطريق ، فإن حزن الله لم تزل عند الله ، ولم تزل خاضعة لسنة خاصة من سنن الله ، قاله يعطى من أحب ومن كره ، ويفقى ويفقر لا بسبب الدين والإيمان ، ولكن بأسباب أخرى ، فليس لأحد أن يتخذ الدين والرسول وسيلة إلى أمر من الدنيا ، وليس لأحد أن ينتظر من الرسول حرمان أعدائه ومخالفيه من متاع الدنيا ،

ثم هو بعد ذلك بشر لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ما يكون غداً : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ، ثم هو لا يقول للناس إنه تخلص بالرسالة من آثار بشريته وأصبح ملكاً ، وإنما هو بشر مثلهم ، وكل ما يمتاز به عليهم أنه يوحى اليه ، وأنه متبع لهذا الوحي لا يحيد عنه ، فعليهم أن يفكروا في ذلك كله بعقولهم ، وأن يتدبروا هذا الوضع تدبر المبصرين المدركين ، وألا يضلوا فيه ضلال العمى المتحيرين .

انما يستجيب الذين يسمعون :

وتقول السورة : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون » . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ، .

تعلم هذه الآيات - صلوات الله وسلامه عليه - أن الناس ليسوا سواء أمام الهدى الإلهى ، فنهм الجاحدون الكافرون أو المعاندون الذين ينكرون الحياة الأخرى ، ولا يعترفون إلا بالحياة الدنيا ، فهم يسرون على هذا الأساس ، ولا يتقبلون إنذاراً ، ولا يخافون عذاباً ، إن هؤلاء قد سدوا على أنفسهم منافذ الهداية ، فدعهم ولا تتجه إليهم ولا تحاول أن تضع وقتك في ترضيهم أو مجاملتهم أو النظر في شروطهم التى يشترطونها للإيمان بك ، وتصديق الذى جئت به - ومنهم المصدقون الذين يخافون ربهم ، ويعلمون أن وراءهم يوماً ، وأنهم سيحشرون إلى ربهم فيسألهم ويحاسبهم ، ولا يحول بينه وبينهم أحد بولاية أو شفاعة ، وهؤلاء هم الذين يتقبلون الإنذار ، لأنهم فكروا وتدبروا غافوا ، فلتكن عنايتك متوجهة إليهم ، وليكن حرصك مقصوراً عليهم .

وهذا المعنى الذى يذكره الله لرسوله في هذه الآية هو إرشاد إلى سنة من سنن الله فى الخلق ، أو هو - بتعبير حديث - تعريف بخلق نفصى اهتدى إليه علماء

النفس أخيراً . ذلك أن الناس يختلفون من حيث تقبل الأفكار والتسخر لها ، وأن ذلك يرجع أحياناً في نفس المنكر الى عقدة خفية تجعله يرفض قبول ما يساق إليه ، ولو كان بادی الصحة مؤيداً بالدليل والبرهان ، وقد تكون هذه العقدة استكباراً في النفس ، لأن غيره تقبله قبله ، أو لأن الذي تقبله أقل منه مركزاً ، أو لأن في قبوله تعقيداً بما لا يجب أن يتقيد به ، أو تركاً لما لا يجب أن يتركه ، إلى غير ذلك ، وهذا هو الذي عناء القرآن بمثل قوله : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ، أَمَّا الَّذِينَ يَقْبَلُونَ فَإِنْ نَفْسُهُمْ خَالِيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْعَقْدَةِ ، أَوْ لَهُمْ قُوَّةٌ عَقْلِيَّةٌ ، وَشَخْصِيَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ تَجْعَلُهُمْ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى عَوَامِلِ التَّرَدُّدِ وَالْهَوَى الْحَقِّي فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ الْقُرْآنُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، ، ، إِنَّمَا تَنْذَرُ مَنْ آتَبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ، » وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مِنْ هَذَا غَيْرُ الْآيَةِ الَّتِي نَتَحَدَّثُ عَنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا يَسْجِيْبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، ، ، وَذُرِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرْتَمَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ، » .

إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين :

وقوله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ، الْخ . » نهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستجابة إلى ما كان يطلبه إليه المستكبرون من إبعاد الفقراء والضعفاء الذين اتبعوه ، فقد جاء في أحاديث السيرة وأسباب النزول أن الملائكة المستكبرين من قريش كانوا يطلبون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينحى عن مجلسه ضعفاء المؤمنين من أمثال صهيب وعمار وخباب ، وأنهم كلوا في ذلك مرة معه أبا طالب ، وأن عمر أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقبوله ، فجاءت هذه السورة وفيها نهى له عن الأخذ بهذا ، فالكلام في ذلك من أول قوله

تعالى : « وأنذر به الذين يخافون ، إلى قوله جل شأنه : « فإنه غفور رحيم ، مراد به إرشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما يسلكه في هذه القضية ، وتعليم له أن صاحب الفكرة والمبدأ يجب ألا يجامل فيه قوياً لقوته ، وألا يستهين بضعيف لضعفه ، فإنما العبرة بالإيمان ، والولاية والأولوية لأهل الإيمان .

والعبارات الواردة في هذه الآيات شبيهة بما جاء في قصة نوح عليه السلام ، حيث يقول له قومه : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الراى وما نرى لكم علينا من فضل ، وحيث يقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا ، . « من ينصرنى من الله إن طردتهم ، .

وهكذا نعلم أن الناس هم الناس ، لافرق بين الذين كانوا في عصر نوح ، والذين كانوا في عصر محمد ، وإننا نرى خلفا بيننا لهؤلاء السلف يحاولون احتكار مجالس الحكم والسلطان والتوجيه دائماً ، ويجنون أن تخلو لهم وجوه الحاكمين والمصلحين بحجة أنهم الأشراف والسادة الأقوياء ، وأن الآخرين هم الضعفاء والمسودون .

وتبين الآيات بعد هذا أن الله تعالى يمتحن عباده ليظهر الذين يعرضون عن تقبل الحقائق استكباراً أو غروراً وترفعاً عن قبول ما قبله المستضعفون ، أو حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله .

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائماً هو أسلوب المستكبرين ، وأن الحق إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمُدِلُّون بما لهم من مراتب عليا في مجتمعاتهم ، فتراهم يقولون بلسان حالهم ، أو بلسان مقامهم مثل ما قال الأولون : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، ؟ .

وفي هذا أيضاً إرشاد لسنة من سنن الله في الناس ، وهى أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسدوا ، وأن تمتلئ قلوب المتخلفين عنهم ببغضهم والحقد عليهم ، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه ، ولا يدعوا سبيلاً للحاسدين والحاقدين ، تمكنهم من إقصاء العاملين المخلصين ، شفاء لما في صدورهم من الحقد ، وإطفاء لنيران الحسد التى تأكل منهم القلوب .

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » .

وهذا تعليم إلهي من الله لرسوله في مقابل ما كانوا يراودونه عليه ، من طرد المؤمنين وإقصائهم ، وإنه لأدب كريم يجب أن يحمله كل مصلح نصب عينيه ، وأن يطبقه في معاملته لأصحابه ومعتنقي فكرته ، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير ، إن له فعل السحر في النفوس ، إذ يبعثها على المبالغة في التجويد والإتقان والإخلاص ، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة ، ونسيت الأعمال الصالحة ، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرءوسين من جهود ، فإن ذلك يكسر نفوسهم ، ويفت في عضدهم ، ويذلهم بالإخلاص والدأب تهاوناً وتراخياً .

وأدب آخر في هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير ، والابتعاد عن التنفير ، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط ، ويزيد الطاقة ، والتنفير من شأنه أن يهد القوى ، ويفسد النفوس .

تسليّة الرسول :

وتقول سورة الأنعام في تسليّة الرسول ، واستلال عوامل اليأس والحزن من قلبه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي تقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلباً في السماء فنتأينهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحزن ويشهد حزنه لما يقابله به قومه من الإعراض والتكذيب ، ويخشى على دعوته أن يطول على أمد تكذيبهم ، وكان حزنه واشفاقه بصلان إلى مدى بعيد ، حتى ذكر القرآن الكريم في بعض

الآيات أنه حزن يكاد يؤدي الى ذهاب نفسه وملاكها حيث يقول : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ، « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، ، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، وهذا الحزن الشديد مظهر من مظاهر بشريته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك احتياجه الى التسليّة والتثبيت ، فإن الله سبحانه وتعالى كان يتعهده بذلك فيما ينزل من القرآن ، ويضرب له أمثال السابقين ، ويقص عليه قصص المرسلين ، فالنبوة لم تخفجه عن مقتضى بشريته من التأثير بدواعي الحزن ، والحاجة الى التقوية والتثبيت ، وفي هذه الآيات من سورة الانعام ذكر الله له أنه يعلم حزنه ، وأن هذا الحزن لما يقوله أعداؤه عنه وعن دعوته ، ثم سلاه وخفف عنه حزنه بتعريفه أن هذا الإعراض الذي يراه منهم ليس راجعا الى أنهم يعتقدون كذبه ، فقد جربوا عليه الصدق طول حياته ولم يهدوا عليه كذبا ، ولكن هذا الإعراض راجع الى شأن عام لجميع الظالمين من أعداء الحقائق في كل زمان ومكان ، فقد جرت عادة الظالمين أن يمحذوا بآيات الله ، والجحود هو نقي ما في القلب لإثباته ، أو إثبات ما في القلب نفيه ، فهم يعلمون أن آيات الله حق ، وأنت صادق فيما تبلفه عن ربك ، وهذا كما جاء في موضع آخر حيث يقول الله عز وجل : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، ومصدقه من السيرة ما روى من قول بعض هؤلاء الجاحدين : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاينا على الركب وكنا كفرس رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصده » ١ .

ثم ضرب الله تعالى لنبيه مثل الرسل من قبله حيث صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، فكان ذلك بشارة قرت بها عينه ، وثلج لها صدره ، وعقب ذلك بأن هذه سنة الله في الرسل وكتباته التي لا مبدل لها « ولا مبدل لكتبات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ، وشيبه بهذا قوله تعالى في آيات أخرى : « ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ، .

وقد جاء في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذه السنة ليست خاصة بالرسول ، وإنما هي عامة في المؤمنين المصلحين ، إذ يقول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . « ولننصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فكما أن هذا كان تبشيراً للنبي ، واستلال لبواعث الحزن من نفسه ، ينبغي أن يأخذه كل مصلح مؤمن داع إلى الله ، بشرى يثبت بها فؤاده ، ويقوى بها عزمه . ويسير بنورها وهداها في طريقه منتظراً النصر من ربه وإن تحالفت عليه الأعداء . وكثرت في سبيله العقبات ، فإن الإخلاص يذل الصعاب ، ويفتح الأبواب . وإن الله مع الصابرين .

ولقد شاء الله تعالى أن يحسم كل أثر من آثار حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ينقذه من ترقبه لآية من الآيات التي كانوا يطلبونها ليؤمنوا به ، حيث كانوا يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » ، فقال له عز وجل : « وإن كان كبر عليك لإعراضهم . . . الخ . والمعنى : لسنا بمجبي هؤلاء إلى ما يطلبون من الآيات ، فإن كان لإعراضهم قد كبر عليك وأهمك إلى هذا الحد ، فانظر ماذا تستطيع أن تفعل ، أتبتغى نفقاً في الأرض تتعمق فيه حتى تأتيهم بآية ؟ أم تبتغى سلماً في السماء تصعد به حتى تحقق لهم ذلك ؟ أما الله فإنه لا يحققه وإن يجيبهم إليه ، ولو أنه أراد منهم إيمان الإرغام والإلجاء لجمعهم على الهدى ، وهبأهم على استعداد يجعلهم يتقبلونه خاضعين ، كما خلق أصنافاً أخرى من خلقه ، وهم الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا تكن من الجاهلين ، فتطلب أو ترقب ما لم تقتضه حكمة الله .

كل هذا فيه تسلية للنبي ، وفيه مع ذلك تصوير بليغ لمقتضيات بشريته ، ودليل على أن الله تعالى يعالجه كما يعالج البشر ، ولو شاء لطبعه على طبيعة أخرى يكون معه بعيداً عن التأثير بالعواطف البشرية التي يعالجه منها ؟

الدين في معترك الفضا

لمحاضرة صاحب السامعة العمرة الأستاذ محمد نقي النقي
السكرتير العام لجماعة التقريب

الحقيقة الثابتة :

ليس في عالمنا حقيقة واقعة ثابتة كحقيقة الدين ، قاوم كل حرب ، وصد كل هجوم ، وانتصر على كل عدو ، وبقي حياً مزدهراً على مدى القرون .
وحاربه الملاحدة ، لأنه لا يعجبهم ، وذهب الملاحدة وبقي الدين .
وحاربه الجبابرة ، لأن في بقاءه كسراً لشوكتهم ، وذهب الجبابرة وبقي الدين .
وحاربه الذين استغلوه ليصلوا بواسطته إلى الحكم ، فلما استقر لهم الأمر بطشوا به وطاردوه ، وكانوا أشد عليه وطأة من كل عدو .

وذهب المستغلون وبقي الدين .

حاربه كل هؤلاء ، وكانوا يعنفون في حربه ، لأن نصوع حقيقته وشدة حيويته وقوة تأثيره في الناس ، كانت تشكل أكبر خطر عليهم ، وتهدد نفوذهم وسلطانهم بالزوال .

بل إن حربهم إياه بلغت في فترات من التاريخ غاية الشدة ، حتى لقد خشى المؤمنون ألا يبقى على الأرض من يعبد الله ويوحده .

ثم ذهبوا جميعاً ، بجيوشهم وبربريتهم ، وخلت الأرض منهم ليصبح ترابها معابد ومساجد للعابدين والساجدين .

ثم جاء القرن الأخير ، وظهرت فيه المذاهب والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المستحدثة ، التي تقوم على المادية الخالصة ، أو على الإلحاد السافر وإنكار الله .

وزعم أصحاب هذه المذاهب أن مبادئهم تحقق السعادة للبشر . ولكنها عند التطبيق ظهر عجزها وقصورها ، وعدم جدارتها لإدارة شئون العباد ، بحيث اعترى الكثير من مبادئها التغيير والتبديل ، وربما الالتحام مع مبادئ من يعارضونها . وقد تعرض الدين لهجمات هذه الكتل الكبيرة المارقة ، فتمطت الكنائس في بلاد ، وتمطت المساجد في بلاد أخرى .

فإذا كانت النتيجة ؟ .

إذا كان لكل مائة أو مئات كنيسة أو مسجد يجتمعون فيه ، فقد صار لكل واحد مسجد أو كنيسة بناها في قلبه .

وإذا كانت الشعائر قد تعطلت أو أهملت بفعل البيئة ، فإن جوهر الدين - وهو الإيمان بوجود قوة فوق القوى - قد بقي في القلوب سليماً ، أدرك الإنسان ذلك وأحس به ، أو فاته إدراكه بتأثير الدعايات .

أي أن النتيجة كانت على عكس ما ذهبت إليه الظنون ، ومن الأحداث ما يكون له أثر كبير في تقوية الدين ، بل في إحيائه - وإن لم يكن ميتاً في وقت من الأوقات .

وستذهب هذه النظم المستحدثة ، لعجزها عن إسعاد البشر .

وستختفي من الوجود هذه المذاهب التي قامت على المادية أو الإلحاد .

ولن يبقى على تلك المذاهب والنظم ، تقدم العلوم في تلك البلاد - كما يظن كثير من الناس - لأن العلم لا يعارض الدين ، فضلاً عن أن كثيراً من العلوم من شأنها أن تدفع أهلها إلى الإيمان بالله .

الذرة والكون :

ومن عجيب الصدف اشتغال العالم في نصف القرن الأخير بالذرة وبالكون ،
تأى بأصغر شيء وبأكبر شيء في الوجود .

أما الذرة ، فهي أصغر لبنة يمكن أن تنقسم إليها العناصر مع احتفاظها
بخصائصها المختلفة .

وقد تمكن الإنسان من تحطيمها ، وكانت النتيجة الملبوسة فضيحة هيروشيا .

ولعل الإنسان لم يكن يدرك الدمار الذي يحدثه التفجير النووي ، فلما رآه
رأى العين بدأ يخافه ويرهبه ، ويدعو إلى التعايش السلى ليدفع عن نفسه خطر هذا
المارد الجبار .

وأما الكون ، فإنه أوسع مما يتصوره أى عقل ، أو يحده أى حد .

والإنسان حين أراد أن يشرف هذا الكون غير المتناهي بقدمه ، أنفق في
سبيل ذلك مبالغ طائلة كانت تكفى لإسعاد كثير من البشر ، وسخر في العمل لهذه
الغاية أكثر من اثني عشر ألف عالم ، وأجرى التجارب الباهظة التكاليف سنين
عديدة ، وأرسل الأقمار الصناعية بعضها في إثر بعض ، فعمل ذلك كله لكي يطاء
برجله القمر .

ويقسم الكثيرون : ما ذا يكون مستقبل الدين بعد أن وجد الإنسان
في نفسه الجرأة على تحدى الكون ؟ .

والجواب أن كثيراً من العلوم من شأنها إن تقدم فيها الإنسان ، أن يحس
بعجزه وضعفه ، وأن يتوجه بصورة إرادية أو لا إرادية إلى الله .

كثير من الأطباء دخلوا قاعات الطب غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد
ما يكون إيماناً بقدرة الله .

كثير من الفلكيين دخلوا المراصد غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد
ما يكون إيماناً بعظمة الله .

كثير من علماء الفيزياء دخلوا المعامل غير مؤمنين ، وخرجوا منها وهم أشد ما يكون إيماناً بسلطان الله .

وعلم الفضاء لها الصدارة على كل العلوم ، ولا بد أن تفتى بأصحابها إلى الإيمان واليقين ، والاعتراف بعظمة الخلاق وربوبيته .

ومع ذلك ، لننظر كم تقدم الإنسان بسفره إلى القمر ، وهل هو حقيقة تحدى الكون ، أو سحر الفضاء ؟ .

كلنا نعرف أننا نعيش في الكرة الأرضية ، وهي سيارة من السيارات التسع التي تدور حول الشمس ، والقمر سيارة أخرى أصغر من الأرض ، والشمس بدورها تجرى في مدار خاص بها ، تدور فيه حول مركز مجرتنا الطريق اللبني - أو التبنى - وتكمل دورتها حول المجرة في ٢٥٠ مليون سنة ، ومعروف أن مجرتنا هذه ليست من كبريات المجرات ، بل هي واحدة من مجرات تعدد بالبلايين ، وكل مجرة منها قوامها مئات آلاف الملايين من النجوم والشموس والكواكب .

هذا كله بالنسبة لعالمنا المرئي ، ومن الممكن وجود كثير من المجرات خارج النطاق الذي عرفناه ، فقد يتعدد وجود الأكران بحيث يفوق الوصف والخيال .

فالكون وسيع إلى درجة أن العلماء جعلوا مقياس المسافة فيه السنة الضوئية ، والضوء كما نعلم يقطع في كل ثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر .

النظام الآتم :

وهذا الكون الواسع يحكمه نظام دقيق ، يعجز البشر عن التفكير فيه لدقته . فكل شمس وكل نجم وكل كوكب وكل مجرة تدور في دائرة محددة ، لا ينحرف واحد منها عن دائرته ، ولا يبطئ في سيره ، ولا يسرع عن مألوفه ، ولا يتخلف عن حركته واحد من المليون من الثانية .

والنظام الذي يتحكم في هذا الكون الواسع ، من أرضنا التي هي تحت أقدامنا إلى كواكب في مجرة تبعد عنا بمليوني سنة ضوئية ، هو النظام الآتم الذي عجز

الإنسان بالأمس عن التفكير فيه لدقته ، ولمس اليوم كاله وروعه بخروجه إلى الفضاء ، على ضآلة المسافة التي قطعها فيه .

ويكفي دليلا على تفاهة ما وصل إليه الإنسان أن نذكر أن المسافة بيننا وبين القمر تقرب من ٢٤٠ ألف ميل ، لو حسبناها بحساب السنة الضوئية ، وهي المقياس المألوف لقياس الفضاء ، لوجدنا أنها تقطع في ثانية وربع الثانية ، فإذا وضعنا إلى جانب ذلك أن بيننا وبين المجرة المتسلسلة مليوني سنة ضوئية ، أدركنا تفاهة ما وصلنا إليه بالنسبة إلى سعة الكون العظيم .

فهل يحق لنا أن نزعّم أننا غزونا الفضاء ، أو ندعى أننا سيطرنا عليه ؟ .

إن مثل الإنسان في صعوده إلى القمر ، كمثل طفل صغير يحبو ، تمكن بعد جهد شديد من صعود درجة واحدة في سلم عمارة شاهقة ، فلما استقر على هذه الدرجة ، جعل ينظر إلى نفسه باعجاب ، وينظر إلى ماحوله بفرور ، وهو يحسب أنه سيطر على العمارة الشاهقة ، مع أنه لم يعرف شيئا عن ارتفاعها ، ولا عن هندستها ، ولا يعرف لماذا بنيت ، وكَم عدد الأدوار فيها .

يقول بليغون العالم الشهير : « إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لاحصر لها ، والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه ، ولكن يبدو أن الأجدر أن يهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشري الضئيل الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صغير في زاوية حقيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئا عن الملايين من أمثالها ، هذا الكائن يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء ، ويجرؤ فيتحدى ، ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكون ، » .

رسالة السماء :

إن الإنسان لتعثره الحيرة كلما تعمق في هذا الكون ، وإن حيرة اتباع منتهاتها حين يرى أنه حتى بالنسبة لما وفق فيه ، كنزوله على القمر ، أو إرساله الصواريخ إلى الزهرة أو المريخ ، يجد أن هذا التوفيق مرهون بالنظام الدقيق في حساب

الكون ، فلو كان هناك تخلف بمقدار ثانية في دوران القمر ، أو تغير طفيف في اتجاهه ، هل كان الإنسان يمكنه أن يدرك القمر وأن ينزل عليه ؟ لو أن لحظة من التأخير أو السرعة طرأت على حركة القمر ، لبقى الإنسان يتيه بسفينته في الفضاء دون أن يبلغ ما يريد .

فتوفيق الإنسان في وصوله إلى القمر ، أو في وصول صواريخه إلى المريخ والزهرة ، هذا التوفيق نفسه يعتمد كل الاعتماد على النظام المحكم الدقيق الذي يسيطر على كل الأجرام السماوية صغيرها وكبيرها ، ويجعلها تسير في مداراتها دون أن يطرأ على حركتها أدنى اختلال ، كأنما هي عقارب ساعة تتحرك على مينائها بغاية الدقة وبغاية الانتظام .

واعتمادا على هذا النظام المحكم الدقيق ، لم يكن على الإنسان إلا أن يحسب المدة والطاقة ، ويضع لسفينته الأوصاف التي تضمن لها قوة المقاومة للجاذبية والضغط ، لتصل إلى النقطة التي يريد ، وهذه النقطة تبدو لشدة الضبط وكأنها نقطة ثابتة تنتظر وصول سفينة الفضاء .

بغير هذا ، هل كان يمكن للإنسان أن يحسب ويقرر أنه في يوم كذا ، وفي الساعة والدقيقة والثانية كذا ، يمكنه أن يدرك القمر في جانبه المذير ، أو جانبه المظلم ، ويطابق حسابه الواقع ؟ .

واعتماد الإنسان على دقة النظام الكوني والانتفاع به ، لا يعني أن الجهود التي بذلت في رحلات الفضاء كانت هينة أو ضئيلة . كلا ، بل إن علماء الفضاء قد بذلوا جهوداً جبارة مضيئة ، وقد حققوا انتصارات علمية كبيرة .

فالتغلب على الجاذبية والانفلات من سلطانها ، هو انتصار على كبير .

وخروج الإنسان إلى مجال انعدام الوزن والسبح فيه ، هو انتصار على كبير .

ومعرفة الضغوط المتباينة في مختلف الأجواء ، هو انتصار على كبير .

وإرسال سفينة تخرق الأجواء ، وتحتمل الضغوط ، وترسو على القمر ،

هو انتصار على كبير .

والتحكم في مسيرة سفن الفضاء ذاهبة وآية ، هو انتصار على كبير .
وهذه الانتصارات العلمية ، لا تدل فقط على الجهود الضخمة التي بذلها علماء
الفضاء ، بل تدل كذلك على النبوغ والعبقرية والعلم الغزير .

وليس من شك في أن هذه الانتصارات العلمية ، قد نقلتنا في مجال المعرفة ،
من نطاق الفروض والظنون إلى الحقائق المسئلة والواقع المدروس ، ومثل هذه النقلة
العلمية الكبيرة قد تورث النفس البشرية الحيرة ، وحين تبدأ الحيرة تبدأ رسالة
الدين ؛ وواجب العلماء أن يهتبلوا فرصة حيرة البشر ليضعوا أمام الحائرين قدرة
خالق الكون الكون العظيم . ولن يستطيعوا أداء هذا الواجب إلا إذا تتبعوا
الحركة العلمية ، وعنوا بدراسة علم الكون أو علم الفضاء عنايتهم بدراسة علم التوحيد ،
ليستعينوا بذلك على تثبيت معالم الإيمان .

أما إذا تفوقوا على أنفسهم ، وظلوا ساديين عن كل ما يجري حولهم ،
وعاشوا على معارف قديمة تناسب قروناً مضت ، فويل لهم من هذا التقصير ،
وويل للبشرية من علم متمرد طليق .

إن عصرنا هذا سمي بعصر العلوم ، ثم سمي بعصر الذرة ، وسمى أخيراً بعصر
الفضاء ، وأرى من الانصاف أن نسميه عصر التبحر في عظمة الله ، وبالتالي عصر
التمهيد لمعرفة الله والإيمان بقدرته التي لا تقف عند حدود سنريهم آياتنا في
الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل
شئ شهيد ، ؟

في القصص القرآني

لأستاذ أحمد الشايب

- ٦ -

٣٦ - أما مصدر القصص القرآني ^(١) ، فقد كان موقفهم فيه عجيباً ، فضع ما في نفوسهم من ريب وضلال ، قالوا : إن محمداً فنان القصص القرآني ومذنبه ، وقالوا إن مصادر القصص القرآني هي :

- (١) التوراة والإنجيل .
 - (٢) الأفاصيص التي كانت متداولة معروفة في الجزيرة العربية .
 - (٣) الحكايات التي كانت تدور حول ناقة صالح وجن سليمان .
 - (٤) خليط من عناصر فارسية وإسرائيلية يؤلف بعض القصص .
- فإذا جمعنا بين القولين عندهم ، كان معنى ذلك أن محمداً كان يأخذ من هذه المصادر ويقص في قرآنه .

فلما كشفنا لهم ما تورطوا فيه من جهل وضلال اضطربوا وأخذوا يحون ما كتبوا ، ويكتبون ما عوا ، ويدأرون ويؤولون مالم يسعهم التأويل ، ويسمرون في متباهات لعلمهم ينتجون من صدمة الحق ، فإذا بهم يقعون في شر مما حاولوا الخلاص منه ، وهكذا من عشر ليج^٢ به العثار .

لأنهم داروا في حلقة مفرغة ، وكأنهم كبر عليهم أن يقولوا إن القرآن من عند الله ليركوا الباب مقترحاً لكل من يقول إن محمداً فنان القرآن حتى يكونوا هم أسبق الناس إلى هذه العقيدة العبقريّة ، وحتى يتركوا للأجيال هذا الفتح المبين .

(١) راجع كتاب : « النبا العظيم » للرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ،
فقه دراسة مستفيضة لمصدر القرآن الكريم .

داروا في حلقة مفرغة ، وقالوا إن القرآن كان يأخذ من المصادر التي أوردوها وهي التي تمثل العقيلة العربية إبان ظهور القرآن ، وليس بلازم أن يكون ما يقصه عنها حقاً صادقاً ، بل يصح أن يعتنق القرآن غير الصدق والواقع ، يقولون بالنص عن نظريتهم هذه : « ليست إلا القول بأن ما في القصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه الصلاة والسلام عن التاريخ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع ، كما لا يلزم القرآن أن يصح هذه المسائل أو يردّها إلى الحق والواقع ، لأن القرآن الكريم كان يحىء في بيانه « المعجز » على ما يعتقد العرب ، وتعتقد البيئته ، ويعتقد المخاطبون . هذا قولهم عن مصادر القصص القرآني المعجز الذي يتحدى العرب ببلاغته وصدقه ، إنه لا يلزم الصدق والواقع . وهنا نقول ما قال الأستاذ الشيخ محمود شلتوت :

« وكيف يمكن أن تؤدي هذه الآيات - إذا حملت على ما يريد صاحب الفن القصصى - إلى الغاية منها حين ينكشف أمرها ويتبين للناس أنه لا واقع لما تقصه وتحدث به ، ١٩ . »

٣٧ — وإذا كان القرآن الكريم عندهم صادراً عن محمد ، وهو بشر ، فقد جاز على قرآنه ما يجوز على غيره من كلام البشر ، وجاز للناس أن يتحدوه ويكذبوه . فقد نفى القرآن الأساطير عن نفسه بقوة حاسمة ، فقالوا له : بل فيك الأساطير ، قال الله في سورة المطففين : « ويل يومئذ للكذابين الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا لأنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، » وهكذا يصرون على تحدى الله تعالى « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ، ويقولون متابعه لهذا التحدى : « أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة « بالحق ، من مثل قوله تعالى : « إن هذا هو القصص الحق ، » « وجاءك في هذه الحق ، فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هي الأحداث

التاريخية ، بل لعل رأيا آخر هو الراجح ، وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية ، معنى هذا أن هذه القصص ليست صدقا في ذاتها ، وإنما افتريت لغرض التعليم مثل حكايات كليله ودمنة .

ولكن القرآن الكريم شنع بالذين يهيمون النبي بأنه افترى القرآن ، أو الذين يقولون عن القرآن إنه إفك افتراه محمد - والقصص من القرآن - : د وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً - أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك - ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب أو كذب بآياته - أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون - تنزيل من رب العالمين - ولو تقرل علينا بعض الآفاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، ويأبى أصحابنا إلا أن يلحوا في التشكيك في القيمة التاريخية الواقعية لما يتصل بهذه الآيات من أحداث وأشخاص ، فيقولون : د إن آيات الافتراء لا تتعلق بالمواد الأدبية القصصية ، ولا بما في هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص ، وهكذا ليصروا على أن الأحداث القصصية في القرآن ليست من باب الصدق والواقع .

فإذا ضيق القرآن عليهم الخناق ، وقال في آخر سورة يوسف عن قصص الرسل : د ما كان حديثاً يفترى ، اضطربوا ولم يطمئنوا إلى صدق القرآن وشمول هذا الصدق للقصص كله ، فقالوا إن القرآن يدل بهذه القصة - قصة يوسف وأخوته - على أن القرآن قد نزل من السماء ، ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا الحد ولا نعدوه إلى القصص ، وهل ما تصورره هو الواقع أو صور الأحداث ، لا نعدوه إلى هذا ، لأنه أمر مسكوت عنه ، وأقل ما يجب هو التوقف حتى يأذن الله ، في حين أن نص الآيات صريح في تناول قصص الرسل أجمعين د حتى إذا استبأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان في قصصهم - أى الرسل - عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، فهل يريد هؤلاء أن يقولوا إن قصة يوسف وأخوته في القرآن كذب وافتراء ؟ وإذا كانت هذه عقيدتهم أفلا تتمدى هذه القصة إلى غيرها في القرآن ، بل إلى القرآن جميعه ؟ لقد صدق الله

العظيم وكذب الضالون : ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به فسوف يعلمون .

٣٨ - وعند أصحابنا : « أن الرسل آمنوا قبل البعثة بما تؤمن به البينة من عقيدة ، ودانوا بما تدین به ، وعبدوا ما تعبد من إله ، .

وهذا الكلام متصل بعصمة الرسل واتهامهم بالكفر قبل البعثة ، ونحن ننقل هنا ما نشره الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الحضر حسين^(١) : « أجمع المسلمون على عصمة الانبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، وعن حكي الإجماع على هذا الإمام عضد الدين في كتاب المواقف ، والقاضى عياض في كتاب الشفا ، وإنما يقول : من يدعى أنهم قلدوا الأهل والعشيرة ، ويخرج على إجماع المسلمين من استطاع أن يملأ يده من روايات تاريخية صحيحة ، أو استطاع أن يقيم دليلاً نظرياً بسمه المنطق السليم .

(١) وقد أجاب الرازى^(٢) عن الشبهة المتعلقة بموسى في قوله تعالى حكاية عن فرعون : « ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ، قال الكفر هنا معناه الكفر بألوهية فرعون أو بنعمته ، وقد أجاب موسى بأنه قتل المصرى وهو ذاهل عن نتيجة الوجزة .

(٢) وكذلك آيات شعيب فسرهما الرازى بما يدفع الشبهة^(٣) عن هذا الرسول الكريم ، فقولهم : « أو لتعودن في ملتنا » معناه : تصيرون ، وعاد بمعنى صار كثير مستعمل ، ومعنى : « نجائنا الله منها ، في الآية الأخرى^(٤) علينا قبجها وفسادها ، ونصب الأدلة على أنها باطل ، ومثل ذلك يقال في الآية : « وقال الذين كفروا لئسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا »^(٥) .

(٣) وأما آية يوسف : « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، فلا شبهة فيها . لأن ترك الشيء لا يستلزم التورط فيه ، بل هو هنا عدم التعرض له ، كما تأخذ

(١) مجلة لواء الإسلام عدد ١٤ / ١٢ / ١٩٤٧ . (٢) ج ٦ ص ٣٤٣ .

(٣) ج ٤ ص ٣٨١ . (٤) الأعراف / ٨٩ . (٥) الرازى ج ٥ ص ٣٤٣ .

كتاباً وترك الآخر ، وقد يكون الأمر أن يوسف كان يخفي التوحيد تقيّة ثم أظهره بعد ، فكان ذلك جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة ^(١) .

على أن آيات يوسف تدل على أن التوحيد كان قائماً أيام عبادة الفراعنة ، يؤيد ذلك قول امرأة فرعون : « رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين » ^(٢) هذا وقد أظهر يوسف رسالة التوحيد وعقيدة بني إسرائيل قبل أن يأتي موسى ، وهي التي ورثها يوسف ، وورثها يعقوب لبنيه : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » ^(٣) فهم لم يعبدوا فرعون ، ولم يتخذوا دين المصريين لهم ديناً .

(٤) أما آية محمد فلا تحتاج إلى الوقوف عندها لشبهة عليها ، وهي قوله تعالى : « قل إني نهيأت أن أعبد الذي تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي » ^(٤) لأن النهي هنا معناه التحذير ، والدليل على ذلك من القرآن نفسه « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، أى قعها عن شهوتها ، ودفعها عما ترغب إليه ومهمت به » ^(٥) . وقال تعالى حكاية عن إبليس مع آدم وزوجته : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فإن آدم وحواء لم يكونا قد أكلتا من الشجرة حين أراد إبليس إغواءهما بالأكل منها .

٣٩ — ثم نراهم يهتدون من شأن المعجزات وعلاقاتها بإثبات النبوة والرسالة ، ونحن لا نطيل الوقوف هنا ، لأن إنكار المعجزات مصادمة لنصوص القرآن التي لا تحتتمل التأويل ، وبخاصة أن من الناس من ينكرها ، ويستبعد حدوثها لمخالفتها للسنن المألوفة ، يقول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ^(٦) والآيات هي المعجزات ، قالوا : منها العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر

(١) راجع الرازي ج ٥ ص ١٨٩ . (٢) التحريم / ١١ . (٣) البقرة / ١٣٣ .
(٤) غافر / ٦٦ . (٥) راجع مفردات الراغب ص ٥٢٧ ، وتفسير الرازي ج ٥ ص ٢٢٧ .
(٦) الإسراء / ١٠١ .

والبحر والطور الذي تنقه على بنى إسرائيل^(١) ، وقال تعالى : « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني »^(٢) .

عرض الرازي في تفسيره لهذه المسألة كثيراً ، وقد قال عند قوله تعالى : « وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا »^(٣) ما يلي :

السؤال الثالث : كيف يعقل خروج المياه العظيمة من الحجر الصغير ؟ .
الجواب : هذا السؤال إما أن يسلم وجود الفاعل المختار أو ينكره ، فإن سلم فقد زال السؤال ، لأنه قادر أن يخلق الجسم كيف يشاء ، كما خلق البحار وغيرها . وإن نازع فلا فائدة له في البحث عن معنى القرآن والنظر في تفسيره ، وهذا هو الجواب عن كل ما يستبعدونه من المعجزات التي حكاه الله تعالى في القرآن من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وأيضاً فالفلاسفة لا يمكنهم القطع بفساد ذلك^(٤) . ويقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : « المعجزة ليست من نوع المستحيلات عقلاً ، فإن مخالفة السير الطبيعي المألوف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالة ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإلتلاف . فإن قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناмос آخر طبيعي ، قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده . . المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوة النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده . »

(١) الكشف ج ٢ ص ٣٧٧ . (٢) المائدة / ١١١ . (٣) البقرة / ٦٠ .

(٤) تفسير الرازي ج ٢ ص ٥٤١ .

٤٠ - وكان المفروض أن يكون أصحابنا منصفين مع المراجع التي اعتمدوا عليها فيما نشروا من ضلالات ، ولكن مراجعهم كانت بين ظلمة ومظلومة .

(١) ولعل أحظاها لديهم كتاب : « تنوير الأفهام في مصادر الإسلام » لسانت كلير ، الذي أراد أن يدك أساس الإسلام بإثباته أن أكثر القرآن وأغلب عقائده أخذت من الأديان الأخرى ومن الكتب التي كانت موجودة في أيام محمد ، وهذا الذي ذكره سانت كلير يذكرنا ما قاله أصحابنا عن مصادر القصص القرآني ، وعلى أية حال ، فقد أخذوا عنه أن محمداً أخذ ما في القرآن من تعاليم وقصص وحكايات مما كان متداولاً بين اليهود في عصره ، وكثير من قصص القرآن مستعار من الخرافات اليهودية ، كقصة هاروت وماروت ، وقصص القرآن إن لم تكن مطابقة لنصوص التوراة والإنجيل فهي أوهام باطلة ألفها كتبة الخرافات من اليهود ، وقصة أصحاب الكهف خرافة يونانية ، وقصة مريم ابنة عمران خطأ جسيم في القرآن ، وكلام عيسى في المهد خرافة كاذبة ، والقرآن يعتمد على الخرافات والأساطير ، وغير ذلك كثير أخذه أصحابنا عن سانت كلير ، واحتفلوا به وفرضوه على القرآن دون سند أو برهان .

(٢) تفسير الفخر الرازي ، وقد أخذ نفسه بإيراد شبهات الملاحدة على القرآن الكريم والرد عليها ، ولكن أصحابنا كانوا يوردون الشبهة ويففلون الرد عليها ، وذلك واضح جداً في الرد على الشبهات التي ادعاها سانت كلير وعلى غيرها ، وقد أوردنا بعضها فيما مر أثناء هذه الفصول ، كذلك أوردنا الشواهد على أن أصحابنا هؤلاء كانوا يرفنون كلام الرازي بالقول عليه ، وبتر كلامه ، وتحريفه ، وإفساده ، وتحميله ما لا يحتمل ، متعسفين في ذلك لعلمهم يصلون إلى ما يدعون على كتاب الله من أوهام وضلالات .

(٣) تفسير المنار ، وبعضه تلخيص لبعض دروس الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وسأره للشيخ رشيد رضا ، وكان مسلك أصحابنا مع هذا التفسير هو نفس مسلكهم مع تفسير الرازي ، وقد ذكرنا لذلك شواهد كثيرة في هذه الفصول ، وأذكر هنا

مثلا واحداً من كثير ارتكبه شيخ هذه العصبة ، فقد عرض لنص وارد في هذا التفسير ، ونسبه إلى الشيخ محمد عبده ، فوقع بذلك بين الجهل والكذب ، لا مفر له من أحدهما ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خذر الموت ، فقد نسب شيخهم إلى الشيخ محمد عبده أنه قال : إن هذه القصة من باب التمثيل ، والواقع أن هذا الرأي للشيخ رشيد رضا ، فالشيخ إما أن يكون جاهلاً بطريقة تفسير المنار ، وإما أن يكون متقولا على الشيخ محمد عبده .

(٤) أما القرآن الكريم - وهو هنا مصدر الموضوع - فيجب عندهم أن يخضع لهذا المنهج الفاسد في الدراسة ، ولهذه القروض الخاطئة ، والدعاوى التي أخذوها عن المبشرين وحاولوا إلصاقها بالقرآن ، وقد ذكرنا بعضها عن كتاب سانت كليز السابق الذكر ، فوق ما زعموه جهلاً وضلالاً مما سبق ذكره .

(٥) أما ما صرح من أخبار التاريخ ، وما كتب عن القرآن وتوثيقه وفنونه وإعجازه ، وما فسره به الثقات ، وما اتصل بحياة الرسل ومكانتهم ، فإن ذلك كله لم يفهم شيئاً ، وركبوا رءوسهم ظانين أن يكسبوا شهرة ، أو يظفروا بمكانة عند المبشرين ، ذلك كله على حساب القرآن الكريم ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ، وصدق الله العظيم ۞

سَمَاءُ اللَّهِ سَلَامٌ نَعْلَمُ لِلَّهِ دِيَانَهُ الْفَرَى وَالْفَلَمَا

بقلم الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

وقف الإسلام حيال الأديان الأخرى وحيال أهلها موقفاً إنسانياً كريماً يتسم بالتسامح واحترام عقائد هذه الأديان وشعائرها ، وعلى أساس هذا الموقف أقام الإسلام جميع ما قرره من قواعد ، وما سنه من مبادئ لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن أهم هذه المبادئ جميعها ما يقرر الإسلام اتباعه مع أهل البلد الذي يفتحه المسلمون . فالإسلام يوجب على المسلمين أن يتركوا أهل هذا البلد أحراراً في عقائدهم وعباداتهم وشعائهم . وقد حافظ المسلمون على هذا المبدأ وسجلوه في كثير من المعاهدات التي عقدوها مع أهل البلاد التي افتتحوها . وفي هذا يقول عمر ابن الخطاب في معاهدته مع أهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر ابن الخطاب أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، لا ينتقص منها ولا من حيزها ، لا يكرهان على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ويقول عمرو بن العاص في معاهدته مع المصريين بعد فتحه لمصر : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبانهم وبرم وبجرم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، وكان الرومان أيام أن كانت مصر تابعة لهم ، قبل فتح العرب لها ، قد حاربوا المذهب المسيحي الذي كان يعتنقه المصريون حينئذ ، وهو المذهب اليعقوبي ، وفرضوا عليهم مذهباً مسيحياً آخر هو المذهب الملكاني الذي كان يعتنقه الرومان ، وعيّنوا من قبلهم بطريركا ملكانياً على مصر ، وعزلوا البطريرك المصري

اليعقوبي، وهو الأنبا بنيامين، الذي اختفى فراراً من بطش الرومان. فلما تم تحرير مصر على يد عمرو بن العاص أعطى الأمان للأب بنيامين فظهر، وسمح له بفتح الكنائس اليعقوبية التي كان قد أغلقها الرومان، وبإعادة عباداتها وشعائرها إليها، وسمح لاتباع كل مذهب بممارسة عقائدهم وشعائهم وعباداتهم وفق تعاليم مذهبهم في حرية وأمن واطمئنان. وهذا مع أن الإسلام يحكم بكفر كلتا الطائفتين - اليعقوبية والمكائنية - فكلتاهما تعتقد أن المسيح إله، والإسلام يحكم بكفر الذين يعتقدون هذا الاعتقاد، وفي هذا يقول القرآن الكريم: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم»، ^(١)، ويقول: «ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام»، ^(٢). وكل ما بينهما من فرق في هذه الناحية ينحصر في أن الطائفة اليعقوبية تذهب إلى أن طبيعة المسيح إلهية خالصة لا تشوبها شائبة من الناسوت، على حين أن الطائفة المكائنية تذهب إلى أنه قد امتزج فيه اللاهوت بالناسوت، فليس في مذهب أية طائفة منهما ما يمت بصلة ما إلى الإسلام وعقائده، ومع ذلك سمح الإسلام لكلتيهما بممارسة عقائدها وعباداتها وطقوسها في حرية وأمن واطمئنان.

ويبدو كذلك الموقف الإنساني الكريم الذي يقفه الإسلام حيال الأديان الأخرى وأهلها فيما يوجب على المسلمين اتباعه من قواعد وآداب في مناقشتهم الدينية مع أهل الأديان الأخرى، فالإسلام يوجب على المسلمين في هذه المناقشات أن يسلكوا أحسن الطرق وأدناها إلى الأدب والمجاملة، وأن يلتزموا بجادة العقل والمنطق، فيكون عمادهم قرع الحجّة بالحجة، والدليل بالدليل، وأن يفسحوا المجال لأهل الأديان الأخرى للاستدلال على صحة أديانهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»، ^(٣)، ويقول مخاطباً المؤمنين: «ولا

(١) آتى ١٧، ٧٢ من سورة المائدة. (٢) آية ٧٥ من سورة المائدة.

(٣) آية ٢٥ من سورة النحل.

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن^(١)، ويقول مخاطباً أهل الأديان الأخرى: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»^(٢)، «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا»^(٣)، «قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرؤى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتمنى بكتاب من قبل هذا أو أنارة من علم إن كنتم صادقين»^(٤). ولا يكتفى القرآن الكريم بذلك، بل إنه ليغري الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم، فيقول: «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»^(٥)، أى إنه لا بد أن يكون أحدنا على حق والآخر على باطل، فتعالوا تناقش ولبدل كل منا بحجته، ليتبين أينا على هدى وأينا في ضلال مبين.

ويبدو كذلك الموقف الإنساني الكريم الذى يقفه الإسلام حيال الأديان الأخرى وأهلها فيما يوجب على المسلمين اتباعه مع غير المسلمين الذين يساكنون المسلمين في بلد واحد تابع للدولة الإسلامية. فالإسلام يقرر أن هؤلاء لهم ما للمسلمين من حقوق، وتطبق عليهم القوانين نفسها التى تطبق على المسلمين، إلا ما تعلق منها بشئون الدين فتحترم فيه عقائدهم، فلا توقع عليهم الحدود ولا العقوبات فيما يحرمه الإسلام ولا تحرمه أديانهم، فلا يعاقب النصراني مثلاً إذا شرب الخمر، لأن دينه في أوضاعه الأخيرة يحل شرب الخمر، ولا يعاقب اليهودى من فرقة القرائين مثلاً إذا تزوج بنت أخته أو بنت أخيه، ولا يفسخ عقده، لأن مذهب فرقة يحل هذا الزواج، ولا يدعون إلى القضاء، ولا إلى العمل في أيام أعيادهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنتم يهود، عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت».

ولا يقف الأمر في معاملة غير المسلمين الذين يساكنون المسلمين في بلد واحد تابع للدولة الإسلامية عند نصوص الشرع والقانون، بل إن المسلمين لمطالبون فوق

(١) آية ٤٦ من سورة النسكوت . (٢) آية ١١١ من سورة البقرة .

(٣) آية ١٤٨ من سورة الأنعام . (٤) آية ٤ من سورة الأحقاف .

(٥) آية ٢٤ من سورة سبأ .

ذلك بالمجاملة وحسن المعاملة زيادة على ما تقتضيه النصوص، وفي هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من آذى ذمياً فقد آذاني » ، ويقول : « من آذى ظلياً يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه يوم القيامة » ، وعند ما جاء رسل نجران المسيحيون إلى المدينة ليفاوضوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت مفاوضاتهم تقتضي نقاهم بعض الوقت ، خصص لهم الرسول عليه الصلاة والسلام نصف مسجده ليؤدوا فيه صلاتهم المسيحية . ومرت يوماً جنازة يهودى أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقام تعظيماً لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودى ! فقال : « ولم لا ، أليس إنساناً » ١٩ .

وروى أن يهودياً شكى على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب في أيام خلافته ، فاستقدم عمر علياً وأوقفه مع خصمه اليهودى على قدم المساواة ، ولكنه عندما أخذ في تحقيق الشكوى خاطب علياً بكينته ، جرياً على عادته في خطابه معه ، فقال له : يا أبا الحسن ، والخطاب بالكنية في اللغة العربية أسلوب من أساليب التعظيم ، على حين أنه خاطب اليهودى باسمه ، فظهرت آثار الغضب على علي ، فقال له عمر : أغضبت أن كان خصمك يودياً وأن مثلت معه أمام القضاء على قدم المساواة ٢٠ ؟ فقال علي : لا ، ولكنني غضبت لأنك لم تكمل المساواة بيني وبينه ، فخطبتني بكينتي ، وخاطبته باسمه .

وأوصى الرسول عليه الصلاة والسلام الجار المسلم أن يحسن إلى جاره غير المسلم ، فقال : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الجار الذى له حق واحد لجار غير المسلم (له حق الجوار ويجب الإحسان إليه بمقتضى هذا الحق) وأما الجار الذى له حقان لجار مسلم لا رحم له (أى ليس بينه وبين جاره قرابة) له حق الجوار وحق الإسلام . وأما الجار الذى له ثلاثة حقوق لجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق القرابة » .

وروى مجاهد قال : كنت عند عبد الله بن عمر وغلما له يذبح شاة ، فقال

ابن عمر لعلامه : إذا سلخت هذه الشاة فابدأ بجارتنا اليهودى ، وكرر طلبه هذا ثانية وثالثة . فقال له مجاهد متعجباً من إلحاحه فى طلبه ، مع أن الجار يهودى : كم تقول هذا يا ابن عمر ؟ فقال له : د إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه ، أى سيجعل له نصيباً من تركتنا بعد وفاتنا ، ولم يفرق الرسول بين الجار المسلم والجار غير المسلم .

وأوجب الإسلام على بيت المال الإنفاق على الزم من د وهو العاجز عن الكسب ، وعلى الشيخ الفانى ، وعلى المرأة إذا لم يمكن لواحد من هؤلاء من تجنب عليه النفقة من أقربائه ، ولا يفرق الإسلام فى ذلك بين المسلم وغير المسلم . فقد روى أبو يوسف فى كتابه : د الخراج ، أن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته قد مرّ بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخاً كبيراً أعمى ، ويبدو عليه أنه من أهل الكتاب ، فضرب عمر بعضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : وما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى بيته وأعطاه شيئاً مما وجده فى بيته ، ثم ذهب به إلى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شيبته ثم نأخذله فى هرمه د إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، فله حق فى الصدقة ، ورد عنه الجزية وعن أمثاله ، واجعل له رزقاً فى بيت المال .

• • •

من هذا كله يظهر مبلغ التجنى على الإسلام والحقيقة والتاريخ فيما يفتريه بعض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الإسلام ، إذ يلصقون به صفة التعصب ، ويزعمون أنه قد انتشر بالسيف ، فقد رأينا أن الإسلام يرى كل البراءة من جميع سمات التعصب ومظاهره ، بل رأينا أنه يذهب فى التسامح مع الأديان الأخرى وأهلها إلى أقصى ما يمكن تصوره فى هذا السبيل ، ورأينا أنه ينهى نهياً باتاً عن

الإكراه في الدين ، ولا يعتمد إلا بالعقيدة المنبعثة عن يقين وإقناع ، ولا يقص علينا التاريخ حالة ما قد انتشر فيها الإسلام بقوة السيف ، أو عن طريق الضغط والإكراه ، وإنما يرجع الفضل في انتشار الإسلام في البلاد التي فتحها العرب وفي غيرها إلى ما يمتاز به هذا الدين القيم في عقائده وشعائره من يسر وسمو ، واتساق مع المنطق السليم ، وبجانبه لمظاهر العنت والحرج ، وصلاحيه لمختلف البيئات والعصور ، وشمول لجميع شئون الحياة ، وديموقراطية في الحكم ، وحرص على احترام حقوق الإنسان ، وتقرير لمبادئ الحرية والإخاء والمساواة على أكل وجه ، فكان يكفي أن تبرز الجالية الإسلامية بأهل بلد غير إسلامي ، وتدعو إلى دينها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقف أهل هذا البلد على أصول هذا الدين الخفيف ، ويشاهدوا ما يضربه أفراد هذه الجالية من مثل عليا في عباداتهم وسلوكهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ومعاملاتهم مع غيرهم ، مطبقين في ذلك مبادئ الإسلام وتعاليمه ، كان يكفي ذلك لكي يدخل أهل هذا البلد في دين الله أفواجا عن طوعية واقتناع ٩

من ثمرات للعفول والمنفول

للساعر الكبير الأستاذ على الجندى

عميد كلية دار العلوم السابق وعضو مجمع اللغة العربية

تسلط الشيطان على ابن آدم :

يقول تعالى حكاية عن إبليس - عليه لعنة الله - : « ثم لآتينهم من بين أيديهم
ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

قالوا في تفسيره : « من بين أيديهم ، يطمعهم في العفو ، ويغريهم بالمعصيان .
« ومن خلفهم ، يذكرهم مخلفين - أولادهم - ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم .
« وعن أيمنهم ، يحبب إليهم الرياسة والثناء « وعن شمائلهم ، يحبب إليهم اللهو واللذات .

وقد فسر قوم المعنى الأول ، فقالوا : « من بين أيديهم ، جهة الدنيا .
« ومن خلفهم ، جهة الآخرة « وعن أيمنهم ، الحسنات « وعن شمائلهم ، أى يحثهم
على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات .

فإن قلت : لم لم يقل : ومن فوقهم ومن تحتهم ؟ .

والجواب : لأن جهة فوق : جهة نزول الرحمة ، ومستقر الملائكة ، ومكان
العرش والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إلاها .

وأما جهة تحت : فلأن الإتيان منها ؛ يوحش ، وينفر عنه ، لأنها الجهة المعروفة
بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وسأوسه وأضاليله .

ويقول شقيق البلخي : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد :
من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى .

أما من بين يدي ، فيقول : لا تخف ؛ فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ : « وإن
لنغار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (١) .

وأما من خلني : فيخوفني الضيعة على أولادي ، فأقرأ : « وما من دابة في
الأرض إلا على الله رزقها » (٢) .

وأما من قبل يميني : فيأتيني من جهة الثناء ، فأقرأ : « والعاقبة للمتقين » (٣) .

وأما من قبل شمالي : فيأتيني من قبل السموات ، فأقرأ : « وحيل بينهم وبين
ما يشتهون » (٤) .

سطرة المال :

مر زياد - وهو والي البصرة - بأبي العريان العدوي القرشي - وكان شيخاً
مكفوماً ذا لسن وعارضة شديدة - فقال أبو العريان : ما هذه الجلبة ؟ قالوا : زياد
ابن أبي سفيان ؟ قال : والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبة
وحنظلة ومحمداً ! فمن أين جاء زياد ؟ .

فبلغ الكلام زيادا - وقال له قائل : لو سددت عنك فم هذا الكلب !
فأرسل إليه زياد بمائتي دينار مع رسول قال له : إن ابن عمك زيادا الأمير
قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها .

فقال أبو العريان : وصلته رحم ! إلى والله ابن عمي حقاً !
ثم مر به زياد من الغد في موكبه ، فوقف عليه فسلم ! فسبى أبو العريان ؟
فقبل له : ما يسبكيك ؟ فقال : عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد ! .

فبلغ ذلك معارية ، فكتب إلى أبي العريان :
ما ألبتلك الدنانير التي بعثت أن لونتك أبا العريان ألوانا
أسمى إليك زياد في أرومته نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
له در زياد لو تعجلها كانت له دون ما يخشاه قربانا

(١) - سورة طه / ٨٢ . (٢) سورة هود / ٦ . (٣) سورة القصص / ٨٣ .

(٤) سورة سبأ / ٥٤ .

فلما قرىء كتاب معاوية على أبي العريان ، قال : اكتب جوابه يا غلام :

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا
أما زياد فقد صحت مناسبه عندى فلا أبتغى في الحق بهتاناً
من يسد خيراً يصبه حين يفعله أو يسد شراً يصبه حينما كانا

قال الحسن البصري : ثلاث كن في معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة منهم ، لكانت موبقة : انتزاعه على هذه الأمة بالسفهاء ، حتى ابتزها أمرها . واستلحاقه زياداً مراغمة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » . وقتله حجير بن عدى ! فياويله من حجير وأصحاب حجير !

ذو الشهادتين :

نازع أعرابي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ناقة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « هذه لي وقد خرجت إليه من ثمنها » فقال الأعرابي : من يشهد لك بذلك ؟ فقال خزيمه بن ثابت : أنا أشهد بذلك ، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من أين علمت وما حضرت ذلك » ؟ قال : لا ، ولكن علمت ذلك ، من حيث علمت أنك رسول الله ، فقال : « قد أجزت شهادتك وجعلتها شهادتين ، فسمى ذا الشهادتين .

أقل الأشياء :

قالوا : ليس في الناس شيء أقل من ثلاثة أشياء : البيان الحسن ، والصوت الحسن ، والصورة الحسنة .

سكرة الملك :

كان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة ، يلعب بحمامة المسجد ، لقبه به ابن عمر . وقيل : لأنه قيل لابن عمر : لو تفانى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فمن نسأل بعدهم ؟ فقال : سلوا هذا القتي ! . وقد جاءت الخلافة - وهو يقرأ في المصحف - فطبقه وقال : سلام عليك ! هذا فراق بيني وبينك ! .

وقعة الحرّة :

يقول ابن خلكان في « وفيات الأعيان » : كان الأقباط والانباط في وقعة الحرّة يدخلون على نساء قریش ، فينتزعون خمرهن من رؤوسهن ، ويخلائهن من أرجلهن ، وسيوفهن على عواتقهن ، وكتاب الله تحت أرجلهم ١ .

مأدبة الله :

جاء في الحديث الشريف : « إن القرآن مأدبة الله » .
وروى عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته » .
مأدبة - بفتح الدال وضمها ، والضم هو الأشهر - قال أهل العلم : معناه ، بدعاء الله ، وليس من الأدب - بفتح الدال - وإنما هو من الأدب - بسكون الدال - وهو الدعاء إلى الطعام . وعن أبي زيد : المأدبة - بالضم : الطعام ، وبالفتح : الأدب . وقال أبو عبيدة : من قال في الحديث مأدبة - بالضم - أراد به الصنيع ، يصنعه الرجل فيدعو إليه الناس . شبه القرآن بصنيع صنعه الله - تعالى - للناس ، لم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه .

من قال : مأدبة - بالفتح - أراد مفعلة من الأدب .
ثم قال : والتفسير الأول : أعجب إلى .
قال المبرد : وأكثر المفسرين قالوا : القول الأول ، وكلاهما في العربية جائز .
ويدل على الأول قول الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - : أنا الجفنة الغراء : أي التي يجتمع عليها الناس ، ويدعون إليها .
ويقال في الدعوة : أدبه بأدبه - من باب ضرب - أدبا - بسكون الدال - : إذا دعاه ، قال الشاعر :

وما أصح الضحك إلا تكال عسانا فأرسلنا المنية تأدبه
ويقال : أدب - كطرب - إذا صنع مأدبة .

رهبوت خير من رحوت :

كان العرب يقولون : رهبوت خير من رحوت : أي من خافك كان أطوع

لك من يردك ، لأن بالخوف يطيعك جبراً ، وبالود إن شاء أطاع ، وإن شاء امتنع .
وهذا المعنى جاء به المتنبي في قوله :

إذا لم تجزم دار قوم مودة أجاز القنا والخوف خير من الود
مدح المتساوى في الفضائل :

قال جعفر الضبي في الحسن بن سهل : أيها الأمير . أسكتني عن وصفك ، تساوى أفعالك في السؤدد ، وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس إلى ذكر جميعها سبيل ، وإن أردت وصف واحدة اعترضت أختها ، إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها .

أفرس الصحابة وأجمعهم :

قالوا لم يكن في عصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - فارس أشجع من الزبير ولا راجل أشجع من علي .

المجانين العقلاء :

قالوا : ثلاثة يعدون في المجانين وإن كانوا عقلاء : الغضبان ، والسكران ، والغيران .

أول من صلب في الإسلام :

أول من صلب في الإسلام : عقبة بن أبي معيط ، صلبه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قصة معروفة .

الصديق والعدو :

قيل : سمي الصديق صديقاً ، لصدقه فيما يدعيه من المودة .

وسمي العدو عدواً ، لعدوانه عليك إذا ظفر بك .

أصناف الناس :

قال سلمان - رضي الله عنه - : الناس أربعة أصناف : آساد ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن . فالآساد : الملوك ، والذئاب : التجار ، والثعالب : القراء المخادعون ، والضأن : المؤمن ينهشه كل من يراه .

خفاء الصواب :

إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مرهوب ، أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب ١ .

أول من أخلف المواعيد :

قال الثعالبي : أول من أخلف المواعيد وكذبها ، ولم يف بشيء منها : إسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد ، وما كانت الرؤساء قبل ذلك يعرفون المواعيد الكاذبة .

خطيب الشيطان :

كان يريد بن أسد القسرى - جد خالد القسرى الدعي المحدث - يلقب بخطيب الشيطان ، وكان أكذب الناس في كل شيء ، معروفاً بذلك ، ثم نشأ ابنه عبد الملك ، فسلك منهاجه ، ثم نشأ حفيده خالد ، ففاق الجماعة في الكذب .

المدح بالكرم والأدب :

قال بعض الشعراء مادحاً :

لو لم يزره الوري لثأله زاروه من حاجة إلى أدبه

من فضائل الإمام علي :

قال الإمام علي : « بعثني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، أتبعثني وأنا شاب ، وهم كهول ؟ ولا علم لي بالقضاء ؟ قال : انطلق فإن الله - عز وجل - سيهدي قلبك ، ويثبت لسانك .

قال علي : فوالله ما تعاييت^(١) في شيء بعد . وروى أنه قال : « اللهم اهد قلبه ، فما شككت في قضاء بين اثنين حتى جلست مجلسي هذا ، .

وروى ابن عباس قال : خطبنا عمر - رضي الله عنه - فقال : علي أقضانا ، وأبى أقرؤنا ، وإنا لنترك أشياء من قول أبي .

وقال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ من معضلة ليس فيها أبو حسن ، ومن قوله : لا يفتين أحد في المسجد وعلى حاضر .

(١) تمايياً بالأمر : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ، ولم يطق لإحكامه .

وقال ابن عباس : أعطى على تسعة أعشار العلم ، وإنه لأعلمهم بالعشر الباقي .
وقيل له : أين عليك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط .
وقد صرح ابن عباس - ويلقب بترجمان القرآن - بأن كل علم في التفسير
أخذه من علي .

وقال مسروق : انتهى العلم إلى ثلاثة : عالم بالمدينة ، وعالم بالشام ، وعالم بالعراق ،
فعالم المدينة : علي بن أبي طالب - عليه السلام - وعالم العراق : عبد الله بن مسعود ،
وعالم الشام : أبو الدرداء . فإذا اتقوا سأل عالم الشام وعالم العراق ولم يسألها .
وقال عبد الملك بن أبي سليمان : قلت لعطاء : أكان من أصحاب النبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - أحد أعلم من علي ؟ قال : لا والله ما أعلمه .
ذكر النساء في الشعر :

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نهى الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم ،
لما في ذلك من الفضيحة ، فكان الشعراء يكتفون عن النساء بالشجر وغيره ، ولذلك
قال حميد بن ثور الهلالي :

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح مسدود على الطريق
أبي الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العضاة تروق
وقال الأحمص :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
الغناء بالمدينة :

كانت المدينة المنورة مدينة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - مركزاً هاماً
من مراكز الغناء ، ومدرسة من مدارس الدولة الأموية ، وكانت الجهرة العظمى
من مغنيات المدينة في أول الأمر منهن . وقد اجتلب عبد الرحمن الأوسط الأموي
عدداً كبيراً من جوارى المدينة ، وخصص لهن داراً في قصره ، سماها : دار المدينيات .
رأى فيلسوف رجلاً جاهلاً جالساً على حجر ، فقال : هو ذا حجر على حجر .

رثاء موجز بليغ :

مرت امرأة جعفر البرمكي عليه وهو مصلوب ، فقالت : لن صرت اليوم آية ،
فقد كنت بالأمس غاية ١ .

الرأى السديد :

حينما هم المأمون بقتل إبراهيم بن المهدي الذي خرج عليه ، استشار أصحابه
في ذلك ، فأشار جميعهم بقتله ، ثم حضر أحد بن أبي خالد ، فقال له : ما ذا تقول
أنت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إن عاقبت فلك نظير ، وإن صفحت فلا نظير لك ١
فاستحسن الخليفة كلامه ، وأخذ به ١ .

منزلة الأخ :

أمر الحجاج بقتل زوج امرأة وأخاها وابنها ، لجأت الزوجة إليه ضارعة ،
وسأله أن يعفو عنهم ، فقال : قد عفوت لك عن واحد منهم فاختره ١ .
ففكرت قليلا ، ثم قالت : الزوج موجود ، والابن مولود ، والأخ مفقود .
اختر الأخ ، فأعجب بها الحجاج ، وعفا لها عنهم جميعاً ١ .

أجوبة الصديقين :

قيل للإمام علي - عليه السلام - كم بين السماء والأرض ؟ قال : دعوة مستجابة .
قيل : فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : مسيرة يوم للشمس .

غلام نجيب :

صنع عدى بن حاتم الطائي مأدبة ، وقال لولده - وكان صبيا - : أقم على الباب ،
وأذن لمن تعرف ، وامنع من لا تعرف ، فقال : والله ، لا يكن أول شيء وليته من
أمر الدنيا ، منع أحد عن الطعام . فقال عدى : والله يا ولدي ، أنت أكرم مني
وأفطن ١ افتحوا الباب ، لمن شاء فليدخل .

العلم أقوى من الشهادة :

يجوز للحاكم أن يحكم بعله من غير شهادة ، لأن عله أقوى من الشهادة ،
ولهذا كان الإقرار أقوى من البيئة ، من حيث كان أغلب في تأثير غلبة الظن ، وإذا

قدم الإقرار على الشهادة لقوة الظن عنده ، فأولى أن يقدم العلم على الجميع ، وإذا لم يحتاج مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوى ، لا يحتاج أيضاً مع العلم إلى ما يؤثر الظن من البينات والشهادات .

مادة بطن :

المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل . والمبطن - كنبير - : الضامر البطن . والبطين العظيم البطن لا من الأكل . والبطن - بفتح الباء وكسر الطاء - : الذى لا يهيم إلا بطنه . والمبطون : العليل البطن .

الممسوخ لا يعقب :

في الحديث الشريف : « ما مسح أحد قط ، فكان له نسل ولا عقب » ، رواه أبو يعلى الموصلى .

مطية الكذب :

في الحديث الشريف : « نفس مطية الرجل زعموا ، شبه الرسول الكريم ، ما يقدمه المتكلم أمام كلامه ، ويتوصل به إلى غرضه من قوله : زعموا كذا وكذا ، بالمطية التى يتوصل بها إلى الحاجة . وإنما يقال : زعموا فى حديث لا سند له ، ولا ثبت فيه ، وإنما يحكى على الألسن على سنبل البلاغ ، قدم من الكلام ما هذا سبيله . وفى الكشف وغيره : أن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - : « زعموا مطية الكذب » . وقال ابن عمر وشريح : لكل شئ كنية ، وكنية الكذب : زعموا .

وقال ابن عطية : ولا يوجد « زعم » مستعملة فى فصيح الكلام ، إلا عبارة عن الكذب ، أو قول انفرد به قائله ، وتبقى عهده على الزاعم ، ففى ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم .

وقال سيويه : زعم الخليل كذا ، وإنما يجيء فيما انفرد به الخليل .

الشعر فوق النثر :

قال الهامى :

ولست أنكر قدر الشعر إن به نقل المآثر عن عاد وعن إرم

خير المناقب ما كان البيان له سلكاً وفصل بالأمثال والحكم
وقال غيره :

ولم يمتدح الكلام لعالم ولكن حسن الدر في أن ينظما
فجور زياد بن أبيه :

أخرج الخوارج معهم امرأة ، فلما ظفر بها زياد بن أبيه ، قتلها ثم عراها .
فلم تخرج النساء بعد عليه ! وكن إذا دعين للخروج ، قلن : لولا التعرية لسارعنا !
معرة النعمان :

معرة النعمان : بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماه وشيزر ، وهي منسوبة إلى
النعمان بن بشير الأنصاري ، فإنه تدبرها ، فنسبت إليه ، ونسب إليها المعري .
المدح الصادق :

قال الأبيوردي :
وصدق قولي فيك أفعالك التي أبت لقريضي أن أوشحه كذباً
وأودع الدهر من شعر أحبره مدائحاً لم توشح بالأكاذيب
من عادات الأصمعي :

كان الأصمعي : لا ينشد ولا يفسر ما كان فيه ذكر الأنواء : لقول الرسول
- صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، لأن العرب كانت
تقول : مطرنا بنوء كذا وكذا . والنهي : إنما هو عن اعتقاد التأثير ، فلا حق
للأصمعي في امتناعه عن تفسير ما ذكر فيه الأنواء ! . والنوء : سقوط نجم في المغرب ،
وطلوع آخر بالشرق . وكذلك كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن .
هكذا يقول أصحابه .

الشعر وحى :

قال حسان بن ثابت :

وقافية عجت بلبل رزينة تلقيت من جو السماء نزولها

وقال الأسمر :

والشعر روى ولكن 'يوحى' لغير نبي

وقال كاتب هذه السطور :

هو الروى أو كالوحى فأقدر جلاله وصن قدسه واشكر للمهلك اليد
يكسر الشعر :

أنشد إبراهيم بن هازم هذا البيت :

جنونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوى من جنون جنون
ويقول الجاحظ : وكان لإبراهيم لا يقيم شعراً ، ولا أدرى كيف أقام هذا
البيت ؟ وكان يدعى بحضرة أبي إسحاق علم الحساب والهندسة والكلام والحق ،
وأنه يقول الشعر ، فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور ، فلك أن
تدعيها عندنا ، ولكن كيف صرت تدعى قول الشعر ، وأنت إذا رويته لغيرك
كسرتة ؟ قال : فإني هكذا طبعت أن أقيمه إذا قلت ، وأكسره إذا أنشدت .
فقال أبو إسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام .

خليفة أحق :

كان الخليفة القاهر بالله العباسي طائشاً ، سفاكاً للدماء مدمناً للسكر ! وكانت له
حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل إنساناً ! ولولا وجود الحاجب وسلامة
لأهلك الناس ! ومن مساوئه : أنه قبض على أم المقتدر زوجة أبيه ، وطالبها بمال
لم تقدر عليه ، فهددها وضربها بيده ، وعذبها بأنواع العذاب ، وعلقها منكسة ،
حتى كان بولها يجري على وجهها ، وهي تقول له : ألسنت أملك في كتاب الله ؟
وخلصتك من ابني في المرة الأولى ، وأنت تعاقبني بهذه العقابة ؟ ولم يبق عندنا مال !
ثم لأنها ماتت عقب ذلك ، فرحمها الله ! ولا رحمه الله !

قيد من ذهب :

كان الخليفة العباسي في مصر ، يلبس السلطان بيده خلقة سوداء ، وعمامة سوداء ،
وطوقاً في عنقه من ذهب ، وقيداً في رجله من ذهب . ويفرض إليه الأمور في
البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من البلاد ، ويلقبه : بقسيم أمير المؤمنين .

كرامة الخوّل :

قالوا : ولسقوط الخامل من عيون الناس ، قالت الاعرابية لابنها : إذا جلست مع الناس ، فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل ، وإلا تخالف تذكر .
وأما الأصمعي فزعم أنها قالت له : تخالف ولو بأن تعلق أير حمار في عنقك ١ .
وروى : أن رجلاً قال لصاحب له : أبوك الذي جهل قدره ، وتعدى طوره ، فشق العصا ، وفرق الجماعة ، لا جرم لقد هزم ، ثم أسر ، ثم قتل ، ثم صلب ١ .
فقال له صاحبه : دعني من ذكر هزيمة أبي ، ومن أسره ، وقتله ، وصلبه . أبوك هل حدث نفسه بشيء من هذا قط ؟ .

عذر أقبح من الذنب :

جمع الأمير قرواش بن المقداد العقيلي صاحب الموصل ، بين الاختين في الزواج ١ فلامته العرب على ذلك ، فقال : خبروني ما الذي نستعمله مما تبيحه للشرعية ؟ فكان عذره أقبح من ذنبه ، ونعوذ بالله من مسخ الطبيعة ، وعمى البصيرة ١ .

غريب القرآن :

يقول المرحوم صادق الرافعي : في القرآن ألفاظ اصطلاح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكورة أو نافرة أو شاذة ، كما رأيت في باب اللغة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة هنا هي التي تكون حسنة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها سائر الناس . وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله ، سبعائة لفظة أو تزيد قليلا ، وجميعه روى تفسيره بالسند الصحيح عن ابن عباس ، وهو ذلك المعجم الحلى الذي كانوا يرجعون إليه .

جبريل :

جبريل : لفظ مركب من جبر ، ومعناه : عبد ، ولإيل ، معناه : الله ، وعلى ذلك فجبريل : عبد الله . وقد سمي جبريل في القرآن الكريم ، بالروح الأمين ، : « وإنه لتنزّل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .
« وروح القدس : « نزل به روح القدس من ربك بالحق » ، « وآتينا عيسى بن مريم

البنات وأيدناه بروح القدس . و ذكر كذلك باسمه : د من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله .

اتقوا الله في أشياء :

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اتقوا الله في الصلاة ، اتقوا الله في الصلاة ، اتقوا الله في الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم ، اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم ، اتقوا الله في الضعيفين : المرأة الأرملة ، والصبي اليتيم ، .

لم يهم يوسف :

قال تعالى في قصة يوسف مع زليخا امرأة العزيز : « واقدحت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، أحسن ما يقال في هذا : أن « لولا ، في أمثال هذه المواقع جارية من حيث للمعنى لا من حيث الصنعة مجرى التقييد للحكم المطلق ، كما في مثل قوله - تعالى - : « إن كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، فلا يتحقق هناك هم أصلاً . وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أو أن يكول « وهم بها ، جواب « لولا ، جرياً على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم ، وتابعهم على ذلك أبو زيد الأنصاري ، وأبو العباس المبرد ، ويكون المعنى : لولا مشاهدة البرهان ، لجري على موجب ميله الجلبى ، لكنه حيث كان مشاهداً له ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفي البحر : أنه لم يقع منه هم - عليه السلام - بها البتة ، بل هو منقضى لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : عرفت الذنب ، لولا أن عصمك الله - تعالى - . وهذا هو اللائق بمقام « الصديق ، عليه السلام ، الذى وصفه الله - تعالى - بقوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ، وعباد الله المخلصون فوق متناول إبليس بشهادة إبليس نفسه : « لا غوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » . وما قيل غير ذلك ، فهو مُزِرٌّ بمقام الأنبياء ، وهو من كلام الحشوة غير المحققين .

ضلال عالم :

كتب أبو منصور المظفر العبادى ، الواعظ المروّزى ، الملقب : قطب الدين الأمير رسالة في إباحة شرب الخمر انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٧٣ ط قديمة .

لا تقطعوا السدر :

جاء في الحديث : « قاطع السدر يصب الله رأسه في النار ، « من الله - تعالى -
لا من رسوله : لعن الله قاطع السدر ، الجامع الصغير .
والسدر : شجر النبق ، والواحدة : سدره .
اتقوا الشعراء :

مدح شاعر على بن الحسين - عليه وعلى آبائه السلام - فأحسن عطيته ، فعوتب
في ذلك ، فقال : أتروني خفت أن يقول : إني لست ابن فاطمة بنت رسول الله
- صلى الله عليه وآله وسلم - ولا ابن علي بن أبي طالب ! ولكن خفت أن يقول :
لست كرسول الله ، ولست كعلي ، فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخلداً في الكتب ،
ومحفوظاً على ألسنة الرواة . فقال الشاعر عند سماعه هذا الكلام النفيس : أنت
- والله يا ابن رسول الله - أعلم بالمدح والذم مني .
معجزة القرآن :

القرآن بحملته معجزة ، وكذلك سوره وآياته ، قال الإمام مجد الدين في
« نهاية العقول » : التحدى وقع مرة بالقرآن ، كقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت
الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيراً ، ومرة بعشر سور ، كقوله تعالى : « فأتوا بعشر سور ، ومرة بسورة ،
كقوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله ، ومرة بآية ، كقوله تعالى : « فليأتوا بحديث
مثله ، وذلك نهاية التحدى ، كقول الرجل لمن يفاخره : هات قرماً كقومي ! هات
كنصفهم ! هات كربعهم ! هات كواحد منهم .

وأقصر سورة منه سورة الكوثر ، فهي ثلاث آيات ، ثم سورة العصر ، وهي
ثلاث آيات ، ولكنها أطول باعتبار الحروف والكلمات في عددها ، ثم سورة
الإخلاص ، وهي أربع آيات ٥

حَوْلَ دَعَاوِي بَعْضِ الْمُسْتَشِيرِينَ وَرَجَاءِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

الأستاذ الدكتور لييب السعيد
المدير العام لشئون القرآن بوزارة الأوقاف

—*—

المسألة عن اختلاف القراءات :

١ — بين القراءات القرآنية اختلافات توقيفية يسيرة ، محصورة كلها ، ومضبوطة ، ومعلومة ، ولا زيادة فيها ولا نقص ، ولا تقديم فيها ولا تأخير ، وهي كلها لا تجهد عامة الناس ، في الفهم والتدبر ، فضلاً عن أن تجهد الدارس للصدق ، أو الفارئ المتخصص .

والقراءات الثابتة القرآنية منزلة كلها من عند الله ، أو مأذون في قراءتها من الله ، فقد توازرت تواتراً مقطوعاً به ، وشاملاً للأصول والفرش ، عن نفس الرسول الذي أوتي القرآن ، وكلف إبلاغه للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قرأ بها المسلمون منذ كان الوحي ، ويستحيل عقلاً أن يكونوا قد أمضوا القرون وهم يقرأون غير ما أنزل الله سبحانه .

وإذا كانت القراءات والروايات القرآنية قد أضيفت إلى قراء ورواة بأعيانهم ، فهذا لا يعنى إلا أن المضاف إليه اختار قراءة أو رواية ، وكان أضبط لها وأدوم ، وألزم قراءة وإقراء بها حتى نسبت إليه أو نسب إليها ، فهي - كما يقرر ابن الجزرى العالم الأشهر في القراءات - إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأى واجتهاد ، ومن هنا كان اختلاف القراء - عند المسلمين - صواباً بإطلاق ، وليس كاختلاف النقهاء يعتبر - حتى عند أصحابه - صواباً يحتمل الخطأ .

٢ — ورأس الأسباب في اختلاف القراءات هو أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما أثبت أحد وعشرون صحابياً روى عنهم البخارى ومسلم ، وآخرون .

ونزول القرآن على سبعة أحرف كان من أسبابه : التيسير على الناس ، حيث كان العرب ، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن اتحدت لغتهم الأم ، شعوبا وقبائل مختلفة اللهجات ، والمعروف أنه يصعب على الفرد عادة أن يستبدل بلهجته لهجة أخرى جديدة . روى الترمذى - فى هذا الشأن - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين : فيهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية ، والرجل الذى لم يقرأ كتاباً قط .

ومن الأسباب أيضاً مسابقة الاختلاف فى طريقة الاداء ، وفى نبرات الصوت : فقد كان من العرب - فى فجر الاسلام - من يدغم ومن يظهر ، ومن يخفى ومن يبين ، ومن يميل ومن يفتح ، ومن يفتح ومن يرقق ، ومن يمد ومن يقصر ، إلى آخره كيفيات النطق المختلفة .

وسبب ثالث يرجع إلى ذات القرآن ، هو اختلاف بعض ألفاظه من حيث الغيبة والخطاب ، والتذكير والتأنيث ، والجمع والإفراد ، والتخفيف والتشديد .

افتراءات المستشرقين :

١ - هذه الحقائق الواضحة ينكرها بعض المستشرقين ، بغير علم ولا هدى ، بل بحجب قصد ، وبجراحة على الحق ، وبعدارة للإسلام . ومن أساليبهم - فى هذا الشأن - أنهم يسحرون أعين الناس وعقولهم ، فيخيلون إليهم أن العربية هى الوسيلة وهى الغاية ، بينما الأمر غير هذا .

وأشهر من تولى كبر هذا العدوان من المستشرقين : تيودور نولدكه
F. Nøledeke وإجناتس جولده سيهر Goldziher Ignacz

وآرثر جفرى Arthur Jeffery ، واللاف أنهم جميعا من غير المسلمين .
والمؤلم والمثير أن آراءهم استخفت بعض الدارسين المسلمين ، فزوجوا لها ، بل إن بعضهم اتحلها اعتقاداً منه بعظم قدرها .

٢ - وأقدم أوائلك الثلاثة : نولدكه ، الذى يصفه جولده سيهر بأنه زعيمه ،
والذى وضع فى تاريخ القرآن كتاب : Gechichte des Qorans ، وهو كتاب

فتَح به صاحبه للطاعنين على القراءات باباً ، ومهد لهم مهاداً ، ويقول جفرى عن هذا الكتاب إنه أساس كل بحث فى القرآن فى أوربا .

ويقول نولدكه إنه يرتاب فى أكثر ما يتعلق بالقرآن من الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين ، وحيلتنا مع نولدكه هنا قليلة ، فهو فعلاً يطرح جانباً كل السنة الصحيحة الموثقة ، والتفسير المستقيم المعقول ، ثم إذا عثر على رواية ضعيفة أو شاذة أو باطلة أو منكرة ، فهو - عندئذ - يجعلها العمدة ، ويتخذها الدليل .

ومن أضل ما ذهب إليه هذا المستشرق إنكار قرآنية بعض ألفاظ القرآن : فتلاً ، أوائل بعض السور ليست - فى زعمه - إلا حروفاً أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة ، وعلى سبيل المثال لما يدعيه : السين : من سعد بن أبى وقاص ، والميم : من المغيرة ، والنون : من عثمان بن عفان ، والهاء : من أبى هريرة . . . وهكذا .

وهذا كله من الناحية الواقعية ادعاء مُفترى ، وقول لا أساس له ، ولا دليل عليه ، وهو يعنى شيئاً باهظاً لا يمكن أبداً أن يسيغه عقل عاقل ، وهو أن الأمة الإسلامية صحابة نبيها ، وتابعيهم ، وتابعى تابعيهم ، ورواتها ، وعلماءها ، وكل أبنائها فى للشارق والمغرب ، وعلى مدى تاريخهم الطويل ، وبأعدادهم التى لا تحصى ، كذابون ومجترون ، توأمتوا ضد كتابهم ، وجاءوا فيه بأشياء من عند أنفسهم ^(١) .

٢ - وربما كان شر الثلاثة - من وجهة النظر الإسلامية - جولد سيهر صاحب كتاب « مذاهب التفسير الإسلامى » ، فقد سبق زعيمه فى حلبة الكيد للقرآن - وقد أخطأ جولد سيهر - مثلاً يخطئ أغلب المستشرقين - فى فهم النصوص القرآنية ، واشتبّه عليه المتواتر من القراءات بالفاذ ، والمشهور بالشاذ ، ومن وراء ذلك ، كان منهجه ملتوياً منحازاً ، فقد كان مبلغ همه أن يجد شيئاً يستطيع به - ولو بالتدليس - أن يدل على أن الاختلاف فى القراءات ليس عن توقيف ورواية ، وإنما عن هوى من القراء ، ولذلك ، فإنه - بعكس المسلمين - لم يأخذ ، فى الحكم

(١) أنظر فى الرد على مثل هذه الدعاوى : لبيب الحميد : الجمع الصوتى الأول للقرآن

على روايات القرآن ، بالسند الصحيح المصحح ، والتواتر المفصل الثابت ، وابتكر من لدنه ضلالات كثيرة ، واعتضد أحياناً بما لا يجوز علياً الاعتضاد به ، ولم يدعن للقاعدة الاسلامية الموثقة والمتبعة : قاعدة أن القراءة - منذ نزول القرآن - سنة يأخذها الآخر عن الأول ، شفاهاً ، فآلهم .

ومن أخطاء جولد سهر أنه يُرجع اختلاف القراءات إلى أسباب أهمها - كما ذكر أحد العرب الآخذين عنه والمنتحلين فكرته - « مسائل ظهرت بعد نزول الوحي ، من خاصية القلم الذي دون به القرآن الكريم ، فرسم أكثر حروف هذا القلم متشابه ، والمميز فيها هو النقط الذي لم يظهر إلا بعد نزول الوحي بآمد ، وكان هذا القلم خالياً في بادئ أمره من الحركات ، .

وتبادر ، فتردّ على هذا الزعم بأن الثابت المعقول هو أن تلقى المسلمين للقرآن وحفظهم إياه كانوا سابقين للتسجيل الكتابي ، وحتى بعد الكتابة ، ظل المعول عليه في تبليغ القرآن هو التلقين الشفهي ، وعند ما كتب عثمان المصاحف الآتمة ، وبعث بها إلى الأمصار ، جعل مع كل منها قارئاً ليقرئ الناس ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدينة ، وأرسل عبد الله بن السائب إلى مكة ، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة ، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة ، والمغيرة بن شهاب إلى الشام . وقد ضرب جولد سهر أمثلة للاختلاف نتيجة عدم النقط ، فجاء هو نفسه بما ينقض دعواه :

قال إن كلمة « تستكبرون » في قوله تعالى : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » (١) . قرئت : « تستكبرون » ، بالثاء المثلثة (٢) .

ونحن المسلمين نعلم أن القراءات السبع المتواترة والثلاث المشهورة بل الأربع الشاذة لا تعرف هذه القراءة المزعومة ، مع أنها ممكنة لو كان الأمر أمر النقط بحسب الفهم الخاص . وهكذا يشهد جولد سهر - من حيث لم يقصد - على رأيه بالبطلان .

(١) سورة الأعراف / ٤٨ .

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٩ من الترجمة العربية .

ومثل ثان ضربه هذا المستشرق ليعزز به دعواه هو لفظ «بُشراً» في قوله سبحانه : «وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمة»^(١) . فقد قرئت «نُشراً» بالنون بدل الباء^(٢) .

وقد تواترت عند عاصم بالباء الموحدة المضمومة وإسكان الشين ، أى بجمع «بشير» كـنذير ونذر .

وتواترت عند ابن عامر بالنون مضمومة وإسكان الشين، وهى مخففة من قراءة الضم . وتواترت عند حمزة والكسائى وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين ، بمعنى ناشرة، أو منشورة، أو ذات نشر .

وتواترت عند نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب بضم النون والشين ، جمع ناشر، كـنازل ونزل ، وشارف وُشرف^(٣) .

فهذه الرسم لاذن ليست هى المرجع فى صحة القراءة كما يدعى جولد سيهر ، وإنما المرجع على الحقيقة كما يقرر المسلمون هو تواتر الرواية .

ومثل ثالث يسوقه هذا المستشرق ، هو كلمة : «إيَّاه» فى قوله عز وجل : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إيَّاه»^(٤) ، فقد قرئت : «أباه»^(٥) .

ومع أن فى الإمكان النطق بهذا اللفظ بالباء بدل الياء فيما لو كان المعول على الخط وحده ، فإن قراء المسلمين جميعاً يقرأون بالياء ، ويتفقون على أن قراءة الباء منكراً .

ويزعم جولد سيهر أن بعض القراء كانوا يغيرون القراءات بما ترضاه مقاصدهم ، وتسيفه أفهامهم وأذواقهم .

ففى قوله تعالى : «يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم»...^(٦) ، يذكر جولد سيهر أن قتادة رأى أن الأمر بالقتل هنا

(١) سورة الأعراف / ٥٧ . (٢) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .

(٣) انظر مثلاً : الحمياطى البنا : إتحاف فضلاء البصرة ص ٢٢٦ .

(٤) سورة التوبة / ١١٤ . (٥) مذاهب التفسير الإسلامى ، نفس الصحيفة .

(٦) سورة البقرة / ٥٤ .

شديد القسوة وغير متناسب مع الخطيئة ، فقرأ : « فأقبلوا ، »^(١) ، ويقول جولد سيهر إنه يرى في هذا المثال : « وجهة نظر موضوعية شاركت في سبب اختلاف القراءة ، »^(٢) .

ولا نرى علينا من حق لجولد سيهر في أن نناقش دعواه هذه ، فهي مرفوضة أصلا ، لأن « فأقبلوا ، » ليست من القراءات المتواترة ، ولا من القراءات المشهورة ، ولا حتى من الأربع الشواذ .

وقد ساق جولد سيهر طائفة أخرى مماثلة من الدعاوى ، وقد نعقها كلها بالتفنيد مترجم كتاب « مذاهب التفسير الإسلامى ، » المرحوم الدكتور عبد الحلیم النجار ، الذى نبه - أحسن الله جزاءه - إلى أهم النزعات الدينية التى « لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يملها عليهم إلف ملازم ، أو هوى متبع ، أو قصد جائز ، »^(٣) ، وأشار - رحمه الله - إلى « أن هناك أخطاء يتورط فيها المستشرقون لغرابة المادة العربية والاسلامية على تفكيرهم ، أو لقلة بصرم بالذوق العربى ، وعجزهم عن التغلغل فى أسرار اللسان ومسالك البيان ، »^(٤) .

أما آرثر چفرى ، وهو أحدث الثلاثة تاريخيا ، فى مقدمته لكتاب « المصاحف لابن أبى داود ، » بعنوان :

Materials for the history of the text of the Quran

يحاول هو الآخر ، معتنضا بدعاوى نولدكه وشولى Nøledeke A. Schwally وغيرهما ، تحريف تاريخ القرآن عن بعض مواضعه ، ويريد ليغطفه فى صدور المسلمين أنوار التقديس لكتابهم ، وليوهى اعتقادهم بتوقيفته .

فهو يدعى - بغير بينة - أن القراءات تطورت على الأيام ، ومعنى هذا - فيما هو واضح - أن الله تعالى لم ينزل القراءات بالشكل المتواتر عند المسلمين ، وأن النبى

(١) نفس المصدر ص ١٠ و ١١ . (٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ص ٤ . (٤) نفس المصدر ص ٥ .

صلى الله عليه وسلم لم يقرأ بها هكذا ، وأن صحابته وتابعيه لم ينقلوها ولم يقرأوا بها هكذا .

وقد احتسب جفرى يبعث الروايات المنكرة والأحاديث الموضوعة مثلاً فعل زميلاه نولدكه وجولدسيهر . ومن توارى جفرى خلفهم ابن أبى داود الذى كذبه أبوه نفسه فى أكثر من حديث .

ويدعو جفرى الباحثين المسلمين إلى شيء عجيب : يدعوم ، لينجوا نهج باحثى اليهود والنصارى الذين شكوا فى صحة كتبهم المقدسة ، والذين نجحوا - كما يعبر - فى كشف ما ورد على هذه الكتب من تغيير وتبديل ، وهو - فى هذا - يقول بقصد خبيث مكشوف :

« فسر فى أيامنا هذه علماء الشرق كثيراً مما يتعلق بتفسير القرآن ، وإعجازه ، وأحكامه ، ولكنهم إلى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور فى قراءته ، ولا ندرى - على التحقيق - لماذا كفوا عن البحث فى عصر له نزعة خاصة فى التنقيب عن تطور الكتب المقدسة القديمة ، وعما حصل لها من التغيير والتحوير ، ونجاح بعض الكتاب فيها . »

ويعد جفرى المستجيبين لدعوته : دعوة بحث القرآن لاكتشاف « التغيير والتحوير » فيه ، يعدم مثل ما أحرز الباحثون فى كتب اليهود والنصارى : ذبوا لمباحثهم ، ونصراً على مخالفهم .

وهو يتكلم عن الباحثين فى كتب اليهود والنصارى ، فيقول إن طريقتهم فى البحث أن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ، ليستنتجوا - بالفحص والاكتشاف - ما كان فيها مطابقاً للكان والزمان وظروف الأحوال ، معتبرين المتن دون الإسناد ، ويجتهدون فى إقامة نص التوراة والإنجيل . . . الخ .

ونحن نرد على جفرى بأن القرآن غير الكتب السابقة ، فهو بلغنا كلمة كلمة ، بل حرفاً حرفاً ، بالتلقى الصحيح ، وبالرواية المتواترة التى تعنى أنه فى كل طبقة من طبقاتها يتوافر جمع من الناس يؤمن تواتروهم على الكذب ، أو لا يتصور تواتروهم عليه .

وَيَرِدُ جُفْرَى نفس المشرع المسموم الذى ررده جولد سيهر ، فيشير إلى الادعاء بأن المصاحف المكتوبة الآتمة - لخلوها من النقط والشكل - كانت تدعو القارىء - فيما بعد - أن يتولى بنفسه فقط قراءة النص القرآنى وضبطه بالشكل ، على مقتضى ما يفهمه هو من معانى الآيات ، وأورد جفرى مثلاً لهذا كلفة : نعله ، فقد كان الواحد - بزعم المستشرقين - يقرؤها : « يعله » ، والآخر : « نعله » ، والثالث : « نعله » ، والرابع : « يعله » ، ... الخ (١) .

وقد قدمنا آنفاً - ونحن نناقش جولد سيهر - أن هذا الرأى فاسد فيما يتعلق بالقرآن ، لأن المسلمين لم يعتمدوا - فى نقل القرآن - على خط المصاحف ، وإنما اعتمدوا على التلقى الشفوى ، ونضيف هنا أنهم اعتمدوا أيضاً على حفظ القلوب والصدور ، وقد عُذَّ ذلك من أشرف خصائصهم : أناجيلهم فى صدورهم ، ثم إن التبديل فى القرآن - على أى وجه وبأى شكل - ليس لأى مخلوق حتى ولو كان نبي الإسلام نفسه ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرءان غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلّى ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، (٢) ، « تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ، (٣) .

والاستقراء الموضوعى يؤدى إلينا أنه لم ينقل ، عبر القرون ، كتاب سماوى أو غير سماوى ، بالتواتر القطعى ، والإسناد الصحيح ، عن العدول الضابطين ، طبقة بعد طبقة ، مثلاً وقع للقرآن ، وقد تلقوه عن النبي نفسه صلى الله عليه وسلم ، حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ، ولا سكوناً ، ولا إنباتاً ، ولا حذفاً .

(١) مقدمة كتاب المصاحف ص ٧ .

(٢) سورة يونس / ١٥ .

(٣) سورة الحاقة / ٤٣ - ٤٧ .

رجاء إلى علماء المسلمين :

أما بعد :

فالمستشرقون - بدعائهم تلك - وهى دعاوى تجد أحياناً بين العرب والمسلمين من يصدقها ويرّوجها . . . المستشرقون بهذا يحاولون ضربنا في مقتل ، يحاولون تشكيكنا في قاعدة الاسلام وأساسه ، وأصل الأصول في حياتنا إلى يوم القيامة .

ولهذا ، ألفت النفاث الآمل إلى علماء المسلمين في كل مكان ، أرجوهم :

(١) التصدى العلى العاجل لآراء المستشرقين بعامه ، وغير المسلمين منهم بخاصة ، حول القرآن ، والكشف عن حقيقة مقاصدهم ، وفساد مناهجهم ، مع دحض حججهم ، وإبطال دعائهم .

(٢) تشجيع مقرئى الروايات القرآنية غير رواية حفص الذائفة في مصر ، والتكئين لهم واطراء هذه الروايات ، في كل مجالات القراءة في البلاد الاسلامية .

(٣) رفض الفكرة التى يدعو إليها الآن بعض المفكرين المسلمين ، والننى ترمى إلى طرح الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة غير رواية حفص عن عاصم ، بقصد توحيد طريقة التلاوة ، وهو قصد غير سديد ، يحرم حلالاً ، ويضيّق واسعاً ، ويحجى على الكتاب العزيز ، ويحادّ السّنة .

(٤) الإعلام ، بكل الطرق ، بأن الروايات القرآنية المتواترة والمشهورة كلها معجزة ، وكلها من عند الله ، ولا يجوز شرعاً المفاضلة بينها ، كما يحرم إهمال إحداها ، وكل مسلم مخير في هذه الروايات .

(٥) توفير عدد التواتر الشرعى من الحفاظ لكل رواية من تلك الروايات ، في كل مجتمع إسلامى ، صغر أو كبر ، وذلك بكل الطرق المستطاعة ، ومنها استكمال تنفيذ مشروع الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم ، وفق المخططات المرسومة له .

واقه يبارك لنا في القرآن العظيم ، ويهديننا الصراط المستقيم ؟

حكم تارك الإسلام وفاعل الخير بلا إيمان

لنفسه المصونة الشيخ محمد هور مغنية

من كبار علماء الإمامية ومؤلف التفسير الكاشف وفقه الإمام جعفر الصادق (ع)

—**—

بعد ما أنجزت موسوعة « فقه الإمام جعفر الصادق » عرضا واستدلالا ،
في ستة أجزاء بلغت أكثر من ألفي صفحة ، شرعت بالقبطة لهذه النعمة الجلى .
وما رأيت عبادة تؤدي شكرها للنعم جل ثناؤه أفضل من بث الدعوة إلى كتابه
بتمهيد السبيل إلى فهم آياته ، ومعرفة دقائقها وأسرارها ، وإدراك أهدافها
ومراميها . فباشرت بتفسير آي الذكر الحكيم ابتداء من سورة الفاتحة ، وأسميته
« التفسير الكاشف » .

وحاولت جهدي أن يكون مرضيا لدى كل قارئ عصره كان أو سلفه ، بل
ويقرأه برغبة وشوق ، ذلك بأن يشعر أنه لا يقرأ عن غيب بعيد عن حياته ، وإنما
يقرأ عن نفسه وأمرته ومجتمعه ، يقرأ عن هذه الحياة وما فيها من مشكلات ، مع
الحل السليم لكل مشكلة كبيرة كانت أو صغيرة .

حاولت جهدي أن يكون « التفسير الكاشف » ، مرضيا عند كل فئة مهما تكن
وجهتها بأسلوب يجمع بين الإيجاز والوضوح ، وبمحتوى يُقنع القارئ ، أى قارئ
بأن الدين مع حياة الإنسان ، ومن أجل الإنسان ، وكل ما هو بعيد عن الحياة
فما هو من الدين في شيء ، وأن أى إنسان كائناً من كان ويكون يدعو إلى حياة
حلية لا تعقيد فيها ولا مشكلات ، فإن دعوته هذه تلتقى مع دعوة الله والرسول ،
أراد ذلك ، أو لم يرد . وهذه الحقيقة لا ينكرها إلا جاهل ، أو متحامل على

الدين وأهله بعد أن نص الوحي عليها بصراحة ووضوح ، وسجلها الله في كتابه ، حيث قال عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، ٢٤ / الانفال . وإذا هنا ليست للشرط ، وإنما هي لبيان الموضوع وتقرره ، والترغيب في الاستجابة ، وأن دعوة الله والرسول لا تكوى إلا للحياة .

وإلى جانب هذه الحقيقة وغيرها ، يجد قارئ التفسير الكاشف الأدلة الوجدانية والعقلية على أصول العقيدة الإسلامية ، مع الأجوبة عن كل شبهة أو تساؤل يمكن أن يمر بالذهن حول أية مسألة من مسائل هذه العقيدة .

وقد اخترت لرسالة الإسلام مسألتين من تلك المسائل الهامة ، وهما : حكم تارك الإسلام من غير عناد ومكابرة ، وحكم من فعل الخير لوجه الخير ، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

حكم تارك الإسلام :

إن الدعوة إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كُتِبَ مرسل من السماء إلى أهل الأرض ما زالت قائمة ، حتى اليوم ، وإلى آخر يوم ، وهي موجهة إلى جميع الناس في الشرق والغرب دون استثناء : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ، ١٥٦ / الأعراف . أما الدليل على صدقها فنطق العقل ، وثبوت المعجزة ، وصلاح الدين للحياة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أَصْلَ دِينِي الْعَقْل ، وَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، ٢٤ / الانفال . وليس من غرضنا أن نستدل هنا على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما الغرض أن نبين : هل من لم يؤمن بنبوة محمد مستحق للعقاب ، أو لا بد من التفصيل ؟ .

وقبل أن نفرق بين العالم والجاهل ، والقاصر والمقصر ، نشير إلى الأصول الرئيسية ، والمقاييس الأولى لاستحقاق العقاب وعدمه ، ومنها تنضج الحقيقة ، والتمييز بين الأفراد .

وقد تسالم الجميع على أن الإنسان كائناً من كان ، وعلى أى دين كان لا يستحق العقاب إلا بعد قيام الحجة عليه ، ولا تقوم الحجة عليه إلا بعد استطاعته على الوصول إلى دليل الحق ، وقدرته على العمل به ، ومع ذلك تركه من غير مبرر . فإذا لم يوجد على الحق دليل من الأساس ، أو وجد ، ولكن عجز الإنسان عن الوصول إليه ، أو وصل إليه ، وأدى حق النظر فيه ، حتى بلغ النهاية ، ومع ذلك خفى عليه الحق ، إذا كان كذلك فهو معذور لعدم إتمام الحجة عليه ، لأن من لم يثبت الحق لديه لا يعاقب على تركه إلا إذا قصر فيه .

وأيضاً من القواعد الرئيسية التى تتصل بهذا البحث قاعدة : « الحدود تدرأ بالشبهات » ، فلا يجوز لنا أن نحكم على تارك الحق بأنه مجرم يستحق العقاب ، ما دمتنا نحتمل أن له عذراً فى تركه ، وهذه القاعدة تنطبق على جميع الناس ، لا على المسلمين فحسب ، كما أنها تشمل جميع الحدود بشئى أنواعها . ومثلها قاعدة : « من أخطأ فى اجتهاده غلطوه مغفور له » ، وهذه القاعدة عقلية لا يمكن تخصيصها بدين دون دين ، أو بمذهب دون مذهب ، أو بأصل أو بفرع . إذا تمهد هذا نـشرع بالتطبيق .

١ — أن يعيش الإنسان فى بلد ناءٍ عن الإسلام والمسلمين ولم تبلغه الدعوة ، وما سمع باسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مدة حياته ، ولا مر بخاطره من قريب أو بعيد أن فى الدنيا ديناً اسمه الإسلام ، ونبيّاً اسمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس من شك أن هذا معذور من حيث عدم استحقاقه للعقاب ، احكم العقل بقبول العقاب بلا بيان ، ولقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، ١٥ / الإسراء والعقل رسول باطنى ، ما فى ذلك ريب ، إلا أنه برهان مستقل على وجود الله ، أما الدليل على ثبوت نبوة النبي فلا بد من توسط المعجزة ، وظهورها على يده . مع حكم العقل باستحالة ظهورها على أيدي غير الأنبياء .

٢ — أن يسمع بالإسلام وبمحمد ، ولكنه يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، لقصوره وعدم استعداده لفهم دليل الحق ومعرفته ، وهذا معذور

لأنه تماماً كالطفل والمجنون . ومثله إذا لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم صغيراً تقليداً لآبائه ، وذهل عن عقيدته كبيراً ، واستمر مطمئناً إليها غير شاك ولا متردد ، وهذا معذور ، لأن تكليف الأهل غير المقصر كتكليف النائم . قال المحقق القمي : إن التحرر من تقليد الآباء والأمهات لا يخطر على بال أكثر الناس ، بل يصعب غالباً على العلماء المرتاضين الذين يحسبون أنهم خلعوا التقليد عن أعناقهم . وقال أيضاً : أن من لا يفتن لوجوب معرفة الأصول يلحق بالبهائم والمجانين الذين لا يتعلق بهم تكليف ^(١) ، وقال الشيخ الأنصاري في الرسائل : فصل الظن في الأصول : « الذي يقتضيه الإنصاف بشهادة الوجدان تصور بعض الحكماء ، وهذا قال الكليني » وقال الشيخ الطوسي : « العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم » .

أجل ، إذا تنبه هذا الغافل من نفسه إلى وجوب المعرفة ، أو قال له قائل : أنك مبطل في عقيدتك ، ومع ذلك أصر ، ولم يبحث ويسأل فهو آثم ، لأنه مقصر وحمل المقصر ليس بعدر .

٣ — ألا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أن فيه الاستعداد الكافي الوافي لتفهم الحق ، ولكنه أهمل ولم يكثر إطلافاً ، أو بحث بحثاً ناقصاً ، وترك قبل أن يبلغ النظر نهايته ، كما هو شأن الأعم الأغلب ، بخاصة شباب هذا الجيل ، وهذا غير معذور ، لأنه أخطأ من غير اجتهاد ، وتمسك من معرفة الحق وأهمل ، وبالأولى أن يؤاخذ ويعاقب من بحث واقتنع ، ومع ذلك رفض الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم تعصياً وعناداً .

٤ — أن ينظر إلى الدليل ، وهو متجه إلى الحق بإخلاص ، ولكن لم يهتد إلى الوجه الذي يوجب الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إما لتمسكه بشبهة باطلة دون أن يلتفت إلى بطلانها ، وإما لسليقة عرجاء ، وما إلى ذلك مما يصد عن رؤية الحق .

وهذا ينظر إلى حاله : فإن جحد ونفى النبوة عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقول قاطع فهو مؤاخذ ومستحق للعقاب ، لأن من خفى عليه وجه الحق لا يجوز له أن يجزم ويقطع بنفيه إطلاقاً ، فقد يكون الحق موجوداً ، ومنع من الوصول إلى معرفته مانع ، وهذا هو الغالب ، فإن الأشياء الكونية موجودة في ذاتها ، ومع ذلك لا نفعل منها إلا قليلاً ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأنبياء والمصلحين ، وأى إنسان يحيط بكل شيء علماً ؟ .

وقد عبر أهل المنطق والفلسفة عن ذلك بعبارات شتى . منها : عدم العلم لا يدل على العدم . عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود . كلٌّ من الجزم بالإثبات والنفي يحتاج إلى دليل ، وقد رأينا الكثير من العلماء الأكفاء ينسجمون مع هذه الحقيقة ، فيتممون آراءهم ، ويتحفظون في أقوالهم ، ولا يتخذون من أنفسهم مقياساً للصواب ، ولا يقولون : هذا رأى مقدس لا ريب فيه ، وما عداه ليس بشيء ، بل ينظرون إلى كل الآراء على أنها عرضة للتساؤل ، ولا شيء أدل على نقص العالم من غروره بنفسه ، وتركيبته لعله ، وازدراؤه لرأى الغير وعقيدته .

وعلى هذا ، فإن مجرد عدم اقتناع زيد من الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يسوغ له نفي النبوة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بقول قاطع ، وإن فعل فهو مسئول ، بخاصة بعد أن رأى العديد من الغرباء الأكفاء الذين لم يتأثروا بالورثة والبيئة ، رأهم يؤمنون بحمد ورسالة لا شيء إلا احتراماً للحق ، واعترافاً بالواقع ^(١) .

هذا إذا جحد ، أما إذا نظر إلى الدليل ولم يقتنع ، ولكنه لم يجحد ، بل وقف موقف المحايد من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يثبت ، ولم ينفي ، وفي

(١) منهم : « ليوبولاد » النمساوى الذى أسمى نفسه : محمد أسد ، وألف كتاب : الإسلام على مفترق الطرق ، ومنهم « فاغليرى » الإيطالية صاحبة كتاب : دفاع عن الإسلام ، وغيرها كثير لم تحصر أسمائهم . وسعدت أن أحد الإيرانيين وضع كتاباً خاصاًق أسماء من أسلم من الغربيين ، وأنهم جمع غفير .

الوقت نفسه نوى مخلصاً أن يؤمن بالحق متى ظهر له ، تماماً كالفقيه العادل ، يفنى بالشئ على نية العدول عنه متى استبان له الخطأ ، أما هذا فهو غير مسئول ، لأن من أخطأ في اجتهاده من غير تقصير فلا يؤاخذ على خطأه بحكم العقل والنقل أيضاً ، فمن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : لو أن الناس إذا جهلوا وقفوا ولم يتحدثوا لم يكفروا . وفي رواية ثانية : إنما يكفر إذا جحد . وقال الشيخ الأنصارى في كتابه المعروف بالرسائل ، فصل الظن في الأصول : « لقد دلت الأخبار المستفيضة على ثبوت الواسطة بين الكفر والإيمان ، أى أن الجاحد كافر ، والمعتقد مؤمن ، والشاك لا كافر ولا مؤمن . »

ومن الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها على عدم مؤاخذه المجتهد غير المقصر إذا أخطأ فيما يعود إلى العقيدة من هذه الأحاديث : الحديث المشهور عند السنة والشيعة : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وإذا قال قائل : أن هذا الحديث خاص بخطأ المجتهد في الأحكام الفرعية ، لا في المسائل العقائدية ، كما ادعى جماعة من العلماء .

قلنا في جوابه وجوابهم : إن المبرر لعدم مؤاخذه المجتهد في الأحكام هو احتراسه وعدم تقصيره في البحث ، وهذا المبرر موجود بالذات في المسائل العقائدية . هذا ، إلى أن جميع الفقهاء اتفقوا - ومنهم الذين خصوا هذا الحديث بالمجتهد في الفروع - اتفقوا كلمة واحدة على أن القاصر الذي يعجز عن إدراك الحقيقة الحققة معذور ، ونحن لا نرى أى فرق بينه وبين المجتهد الذي عجز بعد أن استفاد الجهد ، لأن كلا منهما عاجز عن معرفة ما لم يصل إليه ؟

وإلى العدد القادم إن شاء الله تعالى .

معالم التقريب

للمعونة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

- ٧ -

لا يكتفى التقريب بترديد شعار الوحدة بين المسلمين - تاركا هذه الأمنية العزيزة - على إجمالها وبعدها ، بل يسعى جهده في إبراز التفاصيل والمعالم التي تجسمها وتزيد الناس لها فهماً وتجعلها رجاء حياً قريباً بإذن الله - يلزم كل مسلم أن يكتب في تحقيقه وإنجاحه على قدر وسعه ، وفي مقدمة هذا المسعى ، ألفت نظر المسلمين إلى أن الإسلام ككل - وليس كذهب معين من المذاهب الإسلامية - يقابل ويواجه مبادئ كلية قوية التأثير والانتشار لا يستطيع أن يدير لها ظهره ويضع لو أعطاها نفسه . ومعركة مواضع هذه المقابلة والمواجهة الخطيرة بالنسبة لكل المسلمين - أساسية للتقريب بالذات . لأن التقريب أولاً وأخيراً حركة لجذب التفات المسلمين - بما هم به مسلمون - إلى الاهتمام بالإسلام ككل والدفاع عن الإسلام ككل والاعتزاز به ككل . فمواضع هذه المقابلة والمواجهة ، من هذه الزاوية هي من معالم طريق التقريب ، وعلى هذا الفرض ، تحدثنا في مقال سابق عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بنظرية الحقوق والحريات . وفي مقال آخر عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بالمال ، وفي مقال بعد هذا عن مواضعها فيما يتعلق بالعلم والتعلم ، وفي هذا المقال نتحدث عن مواضع هذه المقابلة والمواجهة فيما يتعلق بفكرة المساواة ونظريتها ، فنقول والله تعالى وحده أعلم :

أن اختلاف البشر في المواهب والاستعدادات والقدرات مشهود وهائل ، وهو يزداد كلما اختلفت الظروف وتكاثر الناس وامتد الزمن ، ويتولد عنه في الغالب ويختلط به ، إلا ما شاء الله عز وجل بلطفه ، ميل للاستعلاء ، وشعور

بالنفوق والرغبة في الاعلان عنه ، يرى فيه بعض أصحاب علم النفس دافعا من الدوافع الغريزية يسوق الذات إلى اكتشاف وإثبات تميزها على غيرها ، وتوكيد هذا التميز في محيطها .

وينتج عن هذا الاختلاف بما يصاحبه - من استعلاء ورغبة في التميز حتما قلة تسمى نفسها الخاصة أو الصفوة أو القادة أو العقلاء أو الناضجين ، وكثرة كاثرة تُسمى من باب الاستعلاء - بالعوام أو الدهماء أو الخشوية أو الجهلاء أو البسطاء أو المحدودين أو الضعفاء أو غير الناضجين ، وتطبق هذا الانقسام أو التقسيم يداخله الكثير من الغرور والوهم والادعاء والتواطؤ من جانب ، والخوف والتخاذل وعدم الالتفات وقبول الضغط والتسليم من جانب آخر . ولا يخفى أن كثيرين ممن يعتبرون أنفسهم من الخاصة أو الصفوة ليس بينهم وبين من يسمونهم بالعوام فروق حقيقية ترجع إلى المواهب والاستعدادات والقدرات .

ونحن في استعلائنا ذاك المدخول المشكوك في سنده ، نلتظر من تلك الكثرة الآدمية أن تنقاد وتدعن أو أن تستوى وتغوى ، لأننا نفترض أنها على الجملة بليدة الفكر لا ترعى إلا بالأخلام والأوهام ولا تكاد تترك أباطيلها ، بل تنمها وتتوارثها .

كذلك لا تنقطع شكوانا من أن الكتل أو العوام تشكل في تاريخنا قشرة سميكة تشبه قشرة الأرض ، تتحطم وتتناثر عليها وتتلوث وتنشوه وتسرّب في جلامدها ومناقعها وأوحالها ورمالها كل المذاهب والمبادئ والقوانين والأنظمة والأفكار العالية ، وكل ما أنتجته أو تنتجه العقول أو النفوس الفذة مما هو جميل أو سديد ، وأن في هذه القشرة السميكة تكمن وتعيش عوامل التحلل والفناء تفتز فرصتها لتهيج وتستأثر وتدمر كل تقدم فكري أو روحى .

في ظل ذلك الاستعلاء وحين نزع أننا الصفوة العاقلة الناضجة القادرة وحدها على معاناة المجهود العقلى اللازم للتقدم الفكرى والترقى الروحى نتصور أننا مسئولون عن تصحيح عمل الخالق جل وعلا ، في خلق هذه الكثرة الغبية المعرّقة

السخيفة ، وأن ذلك يعطينا حقاً شرعياً في أن نتسهم ظهورها الهائل الحامل ، نحفر فيه الحفر ، ونصنع منه الأكوام والحيطان والجسور والحصون والسجون ، يدفن فيها بعضنا بعضاً أو يسجنه في صراعنا الذي لا يهدأ ، على السلطة والكبر والفلج والعلو الكاذب في الأرض .

على أن أحداً لا يمكن أن يمارى في أن وجود الضعفاء وكثرتهم ثوبه أساسى وراء كل مشكلة من مشاكل الإنسانية الفكرية والروحية ، وكل مشاكل الإنسانية هي أولاً مشاكل فكرية وروحية ، حتى المشكلات المالية أو الاقتصادية أو العمرانية والتخطيطية ، كما لا ينزع أحد في أن كل مشاكل النوع الإنسانى ما كانت لتوجد بصورها الحادة التى نراها عليها الآن ، لولا وجود الضعفاء وإنهم أغلبية أهل الأرض ، وأن كل خط من خطوط أى مبدأ أو أى تنظيم بشرى يحيد حتماً وينحرف عن مساره الأول في عقول أصحابه إذا دخل مناطق الكتل ، على نحو يشبه انكسار شعاع الضوء إذا دخل الشعاع وسطاً آخر .

ذلك أن تصدى العقل البشرى للشكلات الإنسانية ومحاولة تصورها واستنباط حلول لها كان وما زال يتم في وسط مستعمل هو وسط القادة والحكام والمشرعين والمفكرين والفلاسفة والعلماء ، ومهما يلاحظ هؤلاء من ظروف وأحوال كتلة الناس وأغليبتهم ، فإنهم يلاحظون ذلك من بُعد ، من مسافة زمانية أو مكانية تطول أو تقصر ، ولا يمكن أن يتخلص عملهم في تنظيم شئون العامة ومواجهة مشكلاتهم ، منميزات وأذواق الخاصة في التفكير والتعبير ، ومن تغليب ما تراه الخاصة حسناً ، ومحاولة استدامة ما يستحق في نظرها البقاء والدوام ، ولذلك لا يسير أى خط من خطوط أى مبدأ أو قاعدة أو تنظيم تضعه عقول الصفوة ، على استقامته الأولى عندها إذا دخل في محيط الكتل ، بل تتجاذبه القوى الداخلية العاملة في هذا المحيط وهي قوى هائلة لا يحيط بعقلها إلا الله عز وجل ، ولذلك أيضاً لا تتفاضل المبادئ والتنظيمات البشرية الأصل إلا في مدى نجاحها مؤقتاً في اجتذاب واستهواء الكتل زمناً ما ، ثم تتعرض كلها للالتواء والإجذاب والانتكاس .

يكشف إجاباتها والتواؤم دائماً ، عن وجود أفراد قليلين متميزين مهمين يركبون أكتاف كثيرين غير مهمين ، بالاستناد إلى نظام لم يعد ينتظم شيئاً ، وإلى مبدأ لم يعد يصدق أحد ، لا يرى الناس فيها إلا ما يحمله من استعلاء مقيت يسم النفوس ويطردها منها الإخلاص والثقة والوفاء والقدرة على التساند والمشاركة .

وفي قلب قضية الاستعلاء هذه تقع مشكلة احتياج المجتمعات البشرية إلى العظمة والآلهة في سياستها وضبطها ، لأننا حين نقول إن اصطناع العظمة والآلهة ضرورة لا غنى عنها لحكم الناس ، نقول أن إشاعة الخوف والخنوع فيهم وتشجيع الملق والصغار بينهم وإفشاء الوهم والخداع في أفكارهم ، ضرورة لا غنى عنها لحكمهم كذلك . ونقول في نفس الوقت إن الناس لا يمكن أن تنقطع حاجتهم - إلى أقلية تحيط نفسها بالهيبة والرهبة والكبرياء والعزة ، ويحلو منها ولها التغالى بالنفس والتهب والعتاد والغضب والبطش ، لأن ذلك كله شيء لا تفارقه العظمة والآلهة وتوابها ونواتجها .

لا يخفى أن في اصطناع العظمة والآلهة تسليطاً للأشياء المادية على عقول الناس ونفوسهم ، وهذا لا يحدث إلا في جماعة ما زالت تعتقد وتصدق أن الأشياء أغلى وأعز وأكثر قيمة وأهمية من الناس . إن العظمة والآلهة في الدرجة الأولى ، إطار يحيط به إنسان نفسه ، إطار من الأشياء المادية ، ومن الأوضاع والاتباع ، يبرز قوة الملك أو الرئاسة أو المكانة لحواس الناس الذين يصدم حواسهم ويروعها المظهر والسمت وأمارات القوة والسطوة ، من كثرة الأعوان وضخامة المكان وغفامة المعمار ، ومن البذخ في الرياش والموكب والحاشية وأسلوب الحياة واستعمال الألقاب والرئاسات والمراتب والمراسم والأوضاع المعقدة وأنواع الطقوس واللباقات والآداب . مثل هذا الإطار يشعر الخلق بهيبة صاحبه وتفوقه ، لأنه يحيطه بجوقا قاهر ، يعطل أو يحجب المشاهدة والمثالة الطبيعية بينه وبين بقية خلق الله تعالى ، فلا يعود قادراً بعد أن ألف العيش في هذا الإطار ، على أن يرى نفسه واحداً من العباد الكثيرين الذين لا حصر لهم يجرى عليه من سنن الله عز وجل

ما يجرى عليهم ولا يهودون ، هم على كثرتهم قادرين على أن يروا أنفسهم مثله يجرى عليهم ما يجرى عليه ، هو يكبر باستمرار ويتضخم في عين نفسه وعيونهم ، وهم يضمرون ويصغرون في عين أنفسهم وعينه ، يغذى ذلك ويستديءه الاعتياد من جانبه على التعزز والتميز والاستلقاء ، ومن جانبهم الاعتياد على التسليم والانحناء والترضى والتدليل ، هو - أى المتعاضم - في إطار العظمة ذاك لا يحتاج لا إلى جهد ولا إلى قدرات لاستصحاب الحال في التمتع بالملك أو الرياسة أو السلطة أو بالمكانة الممتازة ، لأن الناس حين يحكون بالعظمة والآية لا يبحثون عن حقائق الأمور ، بل يقنعون بمظاهرها وظواهرها وصورها وأشكالها ، والعظمة والآية تغطيان أغلب العيوب والنقائص ، وينشأ بفضلها وفي إطارها مع طول الاعتياد ومرور الزمان أوضاع ونظام وتاريخ ومجد تمتاز به نفوس الكثرة ، وتتجمع حوله عواطفهم ، وتعلق به وتثبت رغم افتضاح العيب أو النقص في هذا أو ذاك من المتعاليين المستظلين بظله .

يخاطب إطار العظمة أولاً غريزتي الطمع والخوف ، ويتعامل ابتداء وانتهاء مع النوازع الانانية ، فهو حباله عظيمة وحيلة هائلة لاقتناص النفوس ، التي يفرها ويحتذها ما تتيحه العظمة لصاحبها من الاستمتاع بالتميز والجاه والسلطة ونواجها المسادية والاستزادة منها واستدامتها أحياناً كثيرة في نفسه وأهله . ومن هنا كان تهافت الناس وكلهم على طلب السلطة والمناصب والألقاب واقتناصهم عليها ، واستحلالهم كل حرام في سبيلها ، وقطعهم أرحامهم من أجلها ، ونسيانهم الله عز وجل في اشتغالهم بها . ومن هنا أيضاً كان هذا الجو من التصنع والتظاهر وتبادل الخداع والانخداع الذي يخيم دائماً على مجتمع المدينة ، وأحياناً على مجتمع القرية في كل حضارة قديمة أو حديثة ، ويختلف شدة وكثافة باختلاف الناس والطروف ، ويخفق أحياناً كثيرة أرواح العباد وعقولهم هم وما معهم من الحضارة . ومعلوم أن إطار العظمة يفرض بسرعة لغته ومصطلحاته وأذواقه وأفضلياته على محيط السيد المتعاضم ، ملكاً كان أو وزيراً أو رئيساً ، فيتخصص هذا المحيط

مع مرور الوقت ، لإرضاء السيد وإقامة مجده والمحافظة على مجده ، ويصبح هذا المحيط مبنياً على هذه القاعدة يطرد الصادقين الحريصين على احترام الصدق ، ليتخذ باستمرار طابع الحاشية الشخصية المجرّبة الولاء ، المقصورة على المحبين المقربين ، ويعيش هؤلاء في عالم صناعي يدور حول شخص السيد ، ويلقب بلا انقطاع خيوطه حول السيد الذي يطويه هذا العالم المبنى على الوهم والاصطناع ، فيفقد الحكمة والاعتزان ، ويقع تبعاً لذلك الظلم وتبدد الأموال وتمتن الكفايات ويثاب العايب ويسلط العاجز النافه على رقاب الجادين القادرين ، وتفقد أغلى الأشياء وأعزها على الإنسان سوى احترامها وحرمتها .

والقرآن المجيد يرفض كل صور الاستعلاء في علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، كما يرفض الاستعلاء في علاقة الحاكمين بالمحكومين ، ويرفض أن تكون السلطة فرصة وسبباً للعلو على الخلق ، ويرفض أن يحكم الناس بعضهم بعضاً ، أو يقود بعضهم بعضاً من إطار العظمة والآبهة ، ويرفض أن يتسلق المسلمون إلى أقدارهم على هذا الإطار وحوله . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ، ، « أليس في جهنم مثوى للشكبرين ، ، « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض ، ، « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، . ذلك أن كتاب الله يبدأ ويفتحي من « لا إله إلا الله ، فإذا وجد هذا الولاء لله تعالى في قلب المسلم سوى ابتعد عن إطار العظمة والآبهة وتحاماه حاكماً كان أو محكوماً وعافت نفسه وكرهت أو هام هذا الإطار وتهاويله وكبرياه وغروره ، إذ ليس ينتفع من ذلك الباطل بشيء من يرى الله حقيقة حاضرة قاهرة فوق عبادته . أما من لا يشعر بحضوره تعالى فهو في حال من الغفلة يستطيع معها أن يستكبر ويتعظم ، أو يستكبر غيره ويتعظمه ويؤله « لأنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، . وقد أوصانا الهادي صلوات الله وسلامه عليه ألا نعلو على الله في بلاده وعباده ، كما أوصانا أن نحشا التراب في وجوه المداحين ، علماً بأن المداحين هم سماسرة ومروجو العظمة الباطلة وأعوان الظلمة والظغاة وبناء الأصنام والأوثان البشرية ، في بلاد الله وبين عبادته .

ولا يقر القرآن المجيد والسنة المطهرة من صور الحكم إلا الصورة التي تلغى كل المسافات وأنواع البعد والغربة والانفصال بين الناس وبين حكمهم إلا الصورة التي يتعمى فيها الحكم من كل أغطية الآبهة وستائر العظمة والاستعلاء ، حتى لا تحجب بشرتهم وعبوديتهم لله عز وجل ، ولا تخدع الناس في حقيقتهم ، إلا الصورة التي يتجرد فيها الحكم من كل الامتيازات المادية ، وكل ما يجعله غاية المطمع وقمة للغنم ، والتملك ، ومن كل الامتيازات الاجتماعية التي يصير معها الحكم عزاً للولد والأهل والعشيرة يرفعهم على الناس في الحال والمآل . وهذه الصورة توجد حتماً إذا تم الولاء لله تعالى ، وإذا حفظ الناس الله تعالى .

نقول أن هذا التمييز من جانب الإسلام - في عنفوانه - بين صور الحكم على أساس الاستغناء عن إطار الآبهة والعظمة وتهاويلها وستائرهما ، أو الاحتياج إلى ذلك الإطار ، هو تمييز صحيح عميق بالغ العمق يحس عمقه وصحته أبناء هذا العصر الذين لا يرون في حياتهم شيئاً حقيقياً تسكن إليه النفس وتطمئن ، إن نظم الحكم في زماننا - رغم اختلافها في الأسماء والأوضاع والأغراض في البلاد المختلفة - لا تفارق إطلاقاً إطار الآبهة والعظمة وتهاويلها وستائرهما كلها يعيش داخل هذا الإطار ، على درجات متفاوت بتفاوت الظروف والحاجات في كل بلد ، كلها يشترك في إيجاد غربة وانفصال حاد بين الحكم والمحكومين ، لا يخفف من حدته الصيغ اللفظية عن سيادة الشعب تقال في الدساتير والقوانين وكلام الساسة ، وكلها يشترك في تصوير الحاكم على أنه ليس إنساناً عادياً ، بل شيء هائل القوة لا يرد ولا يصد يعيش في نوع من اللا اسمية والغموض ويعمل كنظام لا يعرف أحد على التحقيق كيف ولا من أين تأتي القرارات التي تصدر عنه وتنسب إليه ، وكلها يشترك في جعل حياة الناس غير إنسانية تتحكم فيها كائنات افتراضية اعتبارية لها طابع مسرحي تتعامل على أساس أن الناس مجردات ووحدات وأعداد وموضوعات ومشروعات وتخطيطات وتقديرات في سياق عام أو تاريخ عام لا يبال بما يحدث لهذا الإنسان أو ذاك على التحديد ، وكلها يشترك في اختلاف القواعد والمبادئ

التي تحكم سلوك وتصرفات الحكام بما هم حكام عن القواعد والمبادئ التي تحكم سلوك المحكومين، وفي إخضاع الأخلاق لما يسمونه باعتبارات السياسة أو السياسة العليا.

لقد استبعد الإسلام في عنفوان العقيدة، إطار العظمة استبعاداً كلياً في حكم المسلمين، فلم يتصور النبي عليه الصلاة والسلام ولا المسلمون على عهده، كما لم يتصور الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ولا من كان في عهدهم من الصحابة والمسلمين بالمدينة ومكة أن يكون للنبي أو للخليفة قصر يحكم منه الناس ولا حاشية تحف به ولا حرس يقفون بين يديه ومن حوله، ولا ثياب غالية يرفل فيها، ولا طعام ذو ألوان تزدان به الموائد وتستبقي إليه الأيدي، كما لم يتصوروا أن عليهم حين يلقونه أن يتخضعوا أو ينكسروا وينحنوا أو أن يطروا ويتملقوا، ولم يدر في خلد أحد منهم أن يلقب النبي أو أحداً من الخلفاء الأربعة بألقاب العظمة أو الجلالة أو الفخامة أو السيادة، لم يتصوروا ذلك، لأن صغيرهم وكبيرهم كان يعلم أن بين حكومة الإسلام وبين الملك بعد المشرقين، وأن الذي يميز حكومة الإسلام وجماعة المسلمين، هو ذلك الاستغناء التام عن الاستعلاء وعن إطار العظمة والالهة، ومع ذلك لم يكن سلطان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا سلطان الخلفاء الأربعة من بعده - على المسلمين - قليلاً ولا ضيقاً، وحسبنا أن نذكر أنه كان يتناول أمور الدين والدنيا معاً، وأن نعلم أن معظم الفتوح قد تم في ذلك الزمن وأن الخلفاء الأربعة أداروا حروباً هائلة، كما أداروا امبراطورية واسعة.

جاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حكم الناس تجريداً تاماً عن فكرة الملكية، ومن كل أثر من آثار فكرة الملكية، كما جردوه من فكرة الانتفاع، وكل أثر من آثار فكرة الانتفاع، فلم يكونوا في تصور رعاياهم من المسلمين - قط مالكين للسلطة أو لبيت مال المسلمين ولا أصحاب حق في الانتفاع بالسلطة أو بمال المسلمين، ولم يفكر أحد في أن يغصب منهم هذا النوع الفريد من الحكم الذي لا يستحق الغصب، والذي لم يسبق للعالم به عهد، ولا في مزاحمتهم عليه، وإذ هو في يدهم مسئولية ومشقة فقط بلا عوض

ولا مقابل ، بل كان طمع الطامعين في إزاحتهم أن يُحوّل الحكم والسلطة إلى عهدهما قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أى إلى ملك يستأثر به ويستدام ويخاف عندئذ عليه الغصب والوثوب ، ودولة تحتاج لاصطناع الموالين والبطش بالمعادين والطامعين ، وهنا يجب أن نتذكر أن فكرة الملكية لم تفارق نظم الحكم في أوروبا إلا بعد الثورة الفرنسية ، ولا تزال آثاره وبقايا من هذه الفكرة باقية في حقوق وامتيازات الملوك في نظم توارث العرش في البلاد الأوروبية التي تحتفظ بالنظام الملكي ، كذلك يجب أن لا ننسى أن طابع الملك والملكية في الحكم - لا يمكن أن يزيله تغير العبارات والصيغ والاصطلاحات والشعارات ، ولا أن الحكم يجرى اختياره في عصرنا بالانتخاب لمدة معينة ما دام أن ذلك يلزمه الحرص والعمل على استدامة السلطة واحتكارها والاحتفاظ بمزاياها المادية والمعنوية في فئة معينة من الناس يجمعها الولاء الواعى لأغراضها ومصالحها ومثلها المشتركة .

وإذ كان ذاك النوع الفريد من الحكم ، مسئولية ومشقة بلا عوض ولا مقابل اللهم إلا الكفاف من الرزق ، لم يشتغل الحاكم بالمحافظة على سلطانه على المسلمين ، ولم يضيع في ذلك وقتاً أو جهداً أو مالاً أو يسفك في سبيله دمماً ، لأن عقد البيعة قد جعل ذلك أمانة في عنق المحكومين أنفسهم ، ولم يفكر مسلم في تلك الفترة المجيدة في إمكان الخروج عن بيعته ، كذا لم يفكر الحاكم في هذه الفترة ، في أن يعيش فوق القانون العام الذي كان يحكمه ويحكم سائر المسلمين - على سواء - وهو القرآن المجيد ٤

رَأْيُ فِي الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

مِنْ مَنَظُورٍ جَدِيدٍ

بقلم فضيلة الأستاذ عبد الرحمن محمد النجار
مدير المركز الإسلامي بدار السلام

١ - الدعوة جزء من الإسلام :

الإسلام دين دعوة ، عن طريق الحوار وإعمال العقل والفكر المستنير . قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ، والقرآن الكريم يثني على الدعاة الذين يرشدون الجناهير إلى الطريق الصحيح إلى الله ، وإلى الخير والعدل والسلام . قال تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، إن هؤلاء الدعاة لا بد من أن يطبقوا دعوتهم على أنفسهم أولا حتى يكونوا مثلاً رائدا ، يحتذى بهم ، ويقبض بهم ، ولهذا قالت الآية المذكورة « وعمل صالحا » ولا بد كذلك من أن يعلن الداعي منهجه بوضوح » وقال لأنبي من المسلمين .
وحدد الإسلام أسلوب الدعوة إليه ، فهو يرفض بشدة الأخذ بأسلوب القهر والإلزام ، لأن ذلك يناقض طبيعة الإنسان ، من أنه صاحب عقل وإرادة يختار بهما ما يشاء عن طريق الاقتناع . فيقول القرآن الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

٢ - أبعاد الدعوة الإسلامية :

وما دام أن الإسلام هو دين عام خالد ، دين الانسانية كلها من غير تفرقة بين لون ولون أو جنس وجنس ، فيجب أن تتسع آفاق الدعوة إليه لتصل إلى عقل كل إنسان . وهو بعد ذلك صاحب المشيئة والاختيار في قبول ما يراه مناسبا لعقله أو رفضه ، فإذا ما قصر المسلمون في إبلاغ الدعوة للناس جميعا كانوا آثمين ، والقرآن الكريم يبين وظيفة رسول الله وهو الداعي الأول للإسلام بهذا الشمول فيقول : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .

٣ - واقع الأمة العربية :

الأمة العربية فيها دعائها ، وتزخر بأساليب الدعوة المختلفة لها ، والمسلمون

فيها يعرفون دينهم وأهدافه على تفاوت في هذه المعرفة من فرد إلى فرد ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، لكن هناك أعما شتى في مختلف جهات الأرض ، فيها إما مسلمون بالوراثة ، ولا يعرفون بعد ذلك شيئاً عن الإسلام ومبادئه وأهدافه ، ويتمنون من قلوبهم أن يعرفوا من أهدافه الكثير ، وإذا رأيتهم وهم يسمعون ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، وقلوبهم تكاد تنخلع من روعة ما تسمع ، وإن كانت لا تفهم ما تسمعه . وإما أناس لم تصل إليهم دعوة الدين ، وهؤلاء في أشد الحاجة إلى من يبصرهم بسباحة الإسلام ، وبسيرة رسول الله ، وبأنه خاتم النبيين والمرسلين الذي جاء بشريعة توائم الفطرة الإنسانية المستقيمة .

٤ — واجب الأمة الإسلامية :

من هذا وجب وجوباً عينياً التعاون بين المسلمين من أجل لإبلاغ الدعوة إلى هذين الفريقين من الناس ، بحيث يقدم من لديه الخبرة الفنية صفوة رجاله وخلاصة خبراته ، ويقدم من لديه الاقتدار المادى جزءاً من ثروته ليسر على الدعاة نشر دعوتهم ، ويسير هذا وفق تخطيط منظم مدروس وتتحمل كل دولة مسئوليتها في ذلك .

• — واقع أعيشه :

وإنني إذ أكتب هذا أكتبه من أرض واقع أعيشه ، في بقعة من أفريقيا ، عزيزة علينا ، حبيبة إلى قلوبنا ، وهي بقعة تقرر حرية الأديان . لكن دعوة الإسلام فيها لا تجد التخطيط المدروس المنظم ، ولا تجد الإمكانيات البشرية والمادية التي تظهر أصالته وتؤكد أنه حقيقة دين الحياة .

٦ — مسئولية دول الاتحاد في الأساس :

وإذا كنت أحمل المسلمين جميعاً مسئولية لإبلاغ الدعوة لهذه البقاع ، فإنني أبدأ بدول الاتحاد الثلاثي ، وقد حملت مسئولية قيام دولة العلم والإيمان ، ونشر مبادئ هذا الدين الحنيف الذي يؤكد للإنسان حقه في الحرية والعزة والكرامة ، في مجتمع مرفوض فيه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، إنني أهيب بها لتقوم بواجبها نحو دينها ونحو لإخوتهم في الإنسانية ليقموا الأمة الخيرة التي تشير إليها الآية الكريمة من كتاب ربنا تبارك وتعالى في قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ،

البلاغة عند الجاحظ

لصاحب الفضية الأستاذ الشيخ علي محمد من العمري
المدرس بجامعة الأزهر

أرجح أن الجاحظ أول من قضى قضاء واضحاً ، لا لبس فيه ولا غموض ،
بين اللفظ والمعنى ، ففضل أحدهما على الآخر .

وقد كانت كل كلمة سبقت تتصل باللفظ والمعنى تمهيداً لهذا الحكم ، سواء في
مجال النقد الأدبي ، أم في مجال الجدل الكلامي حول إعجاز القرآن .

ولم يفصح أحد من القائلين - قبل الجاحظ - فيما وصلت إليه ، بتفضيل أحد
الركنين على الآخر ، وما نسب إلى واحد منهم - في ذلك - إنما هو مجرد استنباط
من كلامه .

عاش الجاحظ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، والنصف الأول
من القرن الثالث . كانت ولادته في سنة (١٥٩ هـ) ووفاته في سنة (٢٥٥ هـ) ،
وكانت حياته بمدينة « البصرة » وهي - حينذاك - تموج بألوان كثيرة ومختلفة من
الدراسات الأدبية والعلمية والفلسفية ، وكان الرجل نادرة في الشغف بالعلم والدرس
والتأليف ، وقد هضم ثقافات عصره ، وألف في أكثر فروعها ، وكان كثير من
مؤلفاته صدى لما تحفل به بيئته العلمية والأدبية .

وكان تلميذاً للتكلم الكبير « إبراهيم بن سيار النظام » شديد الإعجاب به ،
كثير الثناء عليه ، وكان النظام قوى الحجة ، ساطع البرهان ، خبيراً بمسالك الجدل ،
فكثير أتباعه ، بل كان الناس يتحولون من حلقات العلماء إلى حلقاته ، ويعتقون مذهبه .
ومن المشهور أن النظام اعتقد رأياً خاصاً في سر إعجاز القرآن ، وعرف هذا
الرأى به ، لمبالغته في الدفاع عنه ، وبذلك وقعت الشبهة في نفوس كثيرين من
طلاب المعرفة ^(١) .

(١) لي رأى خاص في فهم ومذهب (الصرفة) دوته في كتابي (حول إعجاز القرآن) .

وقد وجد هذا المذهب له أنصاراً من الشيوعية ، والزنادقة أعداء الإسلام ، بل وقع من نفوسهم موقع المراء من ذى الغلة الصادى . فأتخذوه - وغيره - وسائل للطن على الإسلام وكتابه .

والشعوبيون - فى ذلك العصر - عرفوا بعداوتهم للإسلام ، وللعرب ولقتهم وسلطانهم . أما الزنادقة ، وزنادقة الكتاب - بخاصة - فكانوا ما يكاد أحدم يحفظ شيئاً من الكلام ، ويشدو يسيراً من العلم . وىروى قليلا من الأدب ، حتى يظن نفسه صاحب علم ورأى : « فيكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار » (١) .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ - أيضاً - عند احتجاجه للتشبيه فى قوله تعالى عن شجرة الزقوم : « طلعها كأنه رموس الشياطين » فقد قال : « فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته فى كتاب ناطق ، أو خبر صادق ، »

... وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحمل القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ، لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً (٢) .

وكان من هؤلاء من لا يتورع عن الاستخفاف بالقرآن ، والتهوين من شأنه . روى بشار بن برد قال : بلغنى أن رجلاً كان يقرأ القرآن ، وحماد « يريد حماد عجرد ، ينشد الشعر ، فاجتمع الناس على القارىء ، فقال حماد : علام تجتمعون ؟ فوافقه لما أقول أحسن مما يقول (٣) .

(١) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ ، وضحى الإسلام : ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) كتاب الحيوان : ج ٦ ص ١١٢ .

(٣) أمالى المرتضى : ج ١ ص ٩٣ . ط . أولى .

وروى أن عبد الكريم بن أبي العوجاء - وزندقته أشهر من أن توصف - رأى يمولاً عليه آية الكرسي ، فقال لصاحبه : لم كتبت هذا عليه ؟ فقال : لثلاث يسرق ، فقال : قد رأينا مصحفاً سرق (١) .

هذه واحدة .

أما الثانية : فقد كانت البصرة ، والخواضر الإسلامية - بعامة - تموج بعلماء أعلام ، قد انخرفت أذواقهم الأدبية ، في رأى الجاحظ .

فمنهم من كان يعنى بالغريب ، ويتبجح بروايته ، وربما استعمله في كلامه ، فعيسى بن عمر المتوفى سنة (١٤٩ هـ) كان صاحب تعبير في كلامه ، واستعمال للغريب فيه ، وفي قراءته ، والنضر بن شميل كان صاحب غريب ، وكذلك كان ابن كنانة الكوفي المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) . أما أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢١١ هـ) فكان الغريب أغلب عليه ، وكان يبعض العرب ، وقد ألف كتاباً في مثالبها .

وخلف الأحمر (١٢٣ - ٢١٣ هـ) كان راوية ، وعالماً بالغريب ، وأبو زيد الأنصاري ، كانت اللغات والنوادر في الغريب أغلب عليه ، وأبو مهدية كان أعرابياً صاحب غريب (٢) .

وكان هؤلاء وغيرهم من أمثالهم يديرون في كتبهم ألفاظاً من الغريب ، يقول الجاحظ عنها : أن الأصمعي لو خرطب بمثل هذا لظننت أنه سيجعل بعض ذلك .

وممنهم من كان يستحسن الشعر الرديء ، ويدخله في بعض ما يختار ، يقول الجاحظ : ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ، ليدخلها في باب التحفظ والتذكر ، وربما خيل لى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء . . . ولولا أن أكون

(١) المصدر السابق : ج ١ ص ٩٥ .

(٢) المعارف لابن قتيبة : ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

عيابا ، ثم للعلاء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أيعد في وهمك من أبي عبيدة ، (١) .

ومنهم - بل أكثرهم - من كانوا يتعصبون على الشعراء المحدثين ، فيهرجون أشعارهم ، ويحكمون على ألفاظهم بالسخف ، وعلى معانيهم بأنها مأخوذة من معاني السابقين ، فالمعاني المتخلفة من عندهم ، والمعاني الجيدة من السابقين أخذوها .
ثم ثور الخصومة بين الرواة والشعراء .

سئل أبو نواس عن جرير والفرزدق والاختل ، ففضل جريرا ، فقيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر (٢) .

وقابل الرواة العلاء تحديا بتحد مثله ، فأخذوا يتهاذون ، فأبو عبيدة يمتدح خلفا الآخر بأنه معلم أهل البصرة ، والآخر يقول : لم أدرك أحدا أعلم بالشعر من خلف الآخر والأصمعي (٣) ، وأبو زيد الأنصاري يقول : وكان يونس - يعني يونس بن حبيب النحوى - عالما بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات الشعراء ، حافظا لأشعارهم ، يرجع إليه في ذلك كله (٤) .

ويحكى ابن سلام الجحى أن قائلا قال لخلف الآخر : إذا سمعت أنا بالشعر ، واستحسنته ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له خلف : إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف : إنه رديء ، هل ينفعك استحسانك له (٥) ؟ .
فالرواة العلاء كانوا يعدون أنفسهم صيارفة الشعر ، والكتاب والشعراء كانوا يعتقدون أنهم أعرف بنقد الشعر .

(١) البيان والتبيين : ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) العمدة : ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) معجم الأدياء : ج ١١ ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق : ج ٢٥ ص ٦٥ .

(٥) طبقات خول الشعراء : ص ٦ .

في هذه الأجواء التي أشرنا إليها : جو المتكلمين من النظام وأصحابه وخصومه ، وجو الطاعنين على القرآن ، وعلى العربية ، وجو العلماء الذين يستحسنون ما ليس بحسن من الشعر ، وجو هذه الخصومة بين الرواة العلماء ، وجهابذة القول من كتاب وشعراء ، وعلى ضوء المعارف الخاصة التي كانت سائدة في عصر الجاحظ .

أقول : في هذه الأجواء كلها كتب الجاحظ بيانه في البيان ، وكانت القضية الأولى التي صدر عنها في كل أقواله « قضية اللفظ والمعنى » فأرسل فيها حكماً ، ورتب على الحكم نتائج ، وهذا ما نحن شارعون في كشفه وتحقيقه بعون الله تعالى .

• • •

قال الجاحظ بعد أن اتهم من يهزج أشعار المولدين بأنه غير بصير بحوهر ما يروى : « وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني ، وقد بلغ من استجادته هذين البيتين ، ونحن في المسجد ، يوم الجمعة ، أن كلف رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً ، حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً » .

ولو لا أن أدخل في الحكم بعض الفتك ^(١) ، لو عمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني « والمعاني مطروحة في الطريق » يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والغزوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة المساء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير ^(٢) .

وقد أورد الجاحظ هذه الكلمة في كتاب « الحيوان » وهو سابق على كتاب « البيان والتبيين » ، لأنه أشار فيه إلى كتاب الحيوان ، فكل ما كتبه في كتاب « البيان » راجع إلى هذا الحكم ، فأرى هذا هو الأساس لكل ما قاله بعد ذلك ، مما يتعلق باللفظ والمعنى ، وبخاصة أنا لم نجد له رأياً مخالفاً .

وكذلك يتفق هذا الحكم مع رأى الجاحظ في إعجاز القرآن ، فالمشهور عنه أنه كان يرى هذا الإعجاز في « نظم القرآن وتأليفه » وقد نقلت في غير هذا البحث ما يثبت هذا الرأى له .

ونزيد - هنا - أن من العلماء المؤلفين في علم الكلام من أسند هذا الرأى للجاحظ قال صاحب « المواقف » في كتاب « النبوات » وهو يتحدث عن إعجاز القرآن : « وقيل كونه في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعمد مثلها ، وعليه الجاحظ » .

بل إن الجاحظ كان يرى أن العرب لا يمكنهم أن يساموا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في فصاحته ، وأن يحاروه في بلاغته - فضلا عن أن يساموا القرآن ويحاروه فيهما - قال : « فإذا رأيت مكانه - يريد النبي - الشعراء ، وفهمته الخطباء ، ومن قد تعبد للمعاني ، وتعود نظمها ، وتنفيدها ، وتأليفها ، وتنسيقها ، واستخراجها من مدافنها ، وإثارتها من أماكنها ، علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم ، بما قد استغفر عنهم ، واستغفر بجهودهم ، وبكثير مما خولوه قليلا مما يكون معه على البداة ، والفجاءة ، من غير تقدم في طلبه ، واختلاف إلى أهله » (١) .

* * *

وقد حكى الإمام عبد القاهر رأى الجاحظ في تفضيل اللفظ على المعنى ، وأن المعاني لا يكون بها تفاضل ، فبعد أن ذكر أن الداء الدوى هو غلط من قدم الشعر بمعناه ، وأقل الاحتفال باللفظ ، وقال إنه لا يرى متقدما في علم البلاغة ، مبرزا في شأنها ، إلا وهو ينكر هذا الرأى ، ولست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة ، وكلام جاء عن القدماء ، إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ، ورأيهم يتشددون في إنكاره ، وعيبه ، وللعيب به . ثم قال : « وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ ، ويتشدد غاية التشدد ، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركا ، وسوى فيه بين الخاصة والعامة » (٢) .

(١) إعجاز القرآن « للرافعي » ص ٣٩٧ ج ١ . نالته .

(٢) دلائل الإعجاز : ص ١٩٧ .

ثم ذكر القصة التي عاب فيها الجاحظ أبا عمرو الشيباني والتي أثبتناها آنفا ، وعلل تشدد العلماء في إنكار هذا المذهب « تفضيل الشعر بمعناه ، وقلة الاحتفال باللفظ ، بأن « الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينسكركم الإعجاز ، ويبطل التحدى من حيث لا يشعر ، (١٢) .

* * *

وهذا الرأي الذى ذهب إليه الجاحظ في القرن الثالث الهجرى ، هو الذى يردده الآن كثير من الكتاب الغربيين ، يقول أحد كتابهم الكبار : « لا بد أن تكون الكلمات ، وطرق ترتيبها ، وتواضعها ، هي المصدر الأكبر المباشر لكل ما تتضمنه الفنون المكتوبة ، أو المحكية من تأثير ، فالكلمات هي التي تلد المعاني ، (١٣) . ويقول آخر : « إن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس ، ولكن الأسلوب من الرجل ، (١٤) .

غاية البيان :

مذهب الجاحظ في اللفظ والمعنى - بل مذهب كل قائل في نقد الأدب - مرتبط بأوثق الارتباط بالغاية من البيان ، لأنها الهدف الذى يقصد القائل بلوغه ، والباعث الذى يجعل الشاعر والكااتب والخطيب ، على أن يجبروا القول ، ويزينوه ، وينمقوه ، ويوشوه .

وقد عقد الجاحظ في أوائل كتابه « البيان والتبيين » بابا في « البيان » ، وقال : وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التدبير . وفي هذا الباب ذكر أن المعاني مستورة خفية ، ومحجوبة مكشورة ، لا يظهرها إلا الإخبار عنها ، وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى ، ونفعه ، ثم قال : « والدلالة الظاهرة على المعنى

(١) للمصدر السابق : ص ١٩٨ .

(٢) انظر كتاب : « النقد الأدبي » تأليف : ستانلى هاين ، وترجمة الدكتورين :

عباس ونجم : ج ٢ ص ١٠ . (٣) دفاع عن البلاغة : ص ١٦ .

سمات اللفظ البليغ :

اللفظ المختار :

على القائل أن يختار اللفظ المناسب للسامع ، الخفيف على اللسان ، العذب في الاسماع (وكلام الناس طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فن الكلام : الجزل والخفيف ، والمليح والحسن ، والقيح والسمج ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبروا)^(١) .

فن أراد البلاغة فعليه أن يختار الوسط من الألفاظ (فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ، وساقطاً سورياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ، وإلا أن يسكون المتكلم بدويًا أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس)^(٢) .

ومن خفة اللفظ أن يتركب من حروف خفيفة متلائمة ، وقد بين الجاحظ أن من الحروف ما لا يجتمع بعضه مع بعض ، كالجيم والطاء ، والطاء والغين . ثم يقول : وهذا باب كبير ، وقد يكتفي فيه بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي يجرى لهاها .

ويكرر الجاحظ كثيراً وصف الألفاظ بما يجعلها خفيفة على اللسان ، موفية على الغاية . ينقل عنه ياقوت الحموي كلمة خلاعتها : أن اللفظ متى طابق معناه ، وأعرب عنه ، ووافق الحال ، وخرج عن التكلف والاستكراه ، ومتى كان كريماً متخيراً ، وسليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفوس ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره^(٣) .

وموافقة الحال التي ذكرها الجاحظ معناها أن يستعمل اللفظ عند القوم الذين بالفوه ، ويجرى في مخاطباتهم ، فإن لكل صنف من الناس كلمات حظيت عندهم ، فللكتاب ألفاظ ، وللشعراء ألفاظ ، ولطوائف من الناس ألفاظ هي أمس بهم ، وأقرب إليهم ، فعلى البليغ أن يتجنب الألفاظ التي لا تناسب المستمعين ، فإن كان

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٤ . (٢) الموضع السابق .

(٣) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٩٥ . وانظر « البيان » ج ٢ ص ٨ .

الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين .

قال الجاحظ : (وقد تحسن ألفاظ المتكلمين في مثل شعر أبي نواس ، وفي كل ما قالوه على وجه النظرف والتلحاح)^(١) .

والجاحظ يزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وأنه قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني .

قال : ومتى سمعته - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب ، فيأبك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبليدين ، خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والسطغام ، فيأبك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً مرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها^(٢) .

ونلاحظ هنا أن الجاحظ جعل للبيان غاية أخرى وراء الإفهام ، هي الإمتاع ، فلا يظن ظان أن الجاحظ أخطأ حين قصر غاية البيان على الإفهام .

ولذلك - أيضاً - كان يستملح اللحن من الجوارى الظراف ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور ، ما لم تكن واحدة منهن صاحبة تكلف .

وقد ذكر الجاحظ ألفاظاً كانت مكروهة من طريق الرواة ، من ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يقولن أحدكم خبيث نفسي ، ولكن ليقل نعمت نفسي) كأنه كره صلى الله عليه وآله وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسة الخبيث والفساد بوجه من الوجوه .

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل : استأثر الله بفلان ، بل يقال : مات فلان ، ويقال : استأثر الله بعلم الغيب^(٣) .

(١) البيان ج ١ ص ١٤١ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٣٣٥ .

وكره مجاهد أن يقولوا : مسجدا ومصحفا ، للسجد القليل الذرع ،
والمصحف القليل الورق .

قال الجاحظ : ورب اسم إذا صغرت كان أملاً للصدى ، مثل قولك : أبي عبيد الله
هو أكبر في السماع من أبي عبد الله ، وكعب بن جعيل هو ألحم من كعب بن جعل .
وكانوا يكرهون ألا تكون الألفاظ قريبة الدلالة على معانيها . سمع عمر
رضي الله عنه - رجلا يدعو ، ويقول : اللهم اجعلني من الآفلين . قال : ما هذا
الدعاء ؟ قال : إني سمعت الله عز وجل يقول : (وقليل من عبادي الشكور)
وقال : (وما آمن معه إلا قليل) قال عمر : عليك من الدعاء بما يعرف ^(١) .

ثم أورد الجاحظ ألفاظاً كثيرة كرهها الصحابة ومن بعدهم ، ونقل السر في
كرهها بعضها ، ولم يقف عليه في كراهة بعضها الآخر .

وقد أشرت في بعض ما نقلت عن الجاحظ أنه كان يكره أن تهذب الألفاظ
حتى لا يكون إلا (لب اللب) وإلى سر ذلك عنده ، وهذه حقيقة ، فالجاحظ مع
عنايته باختيار اللفظ كان يكره المبالغة في التهذيب ، ويدعو إلى الاقتصاد في ذلك .
ويكفي أن ينظر البليغ في مواقع الألفاظ ، وأين استعملها العرب ^(٢) ، ويذكر قول
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا خلافة) ويذكر كلمة لبعض الربانيين
من أهل المعرفة بما يعترى الإنسان من الفتنة بحسن ما يقول . هذه الكلمة تحذر
من حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام ، لأن الألفاظ تزين المعاني ، وتمنعها
دلاً متعشقا ، فتصير في القلب أحلى (والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ،
ومدخل خدع الشيطان خفي) ^(٣) .

والجاحظ يوافق هذا الرباني ، وينصح بأن يكون هذا الباب على ذكر مناسبات
دائما ، وألا نفرط ، وقد أحسبه بقصة تشير إلى بعض التدبير في ذلك . قال إن
عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - احتبس الأحنف بن قيس حولا كاملا - وهو

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٨ . (٢) الحيوان ج ٣ ص ٣٤٣ .

(٣) البيان ج ١ ص ٢٥٤ .

أبين العرب والعجم قاطبة - كما يقول الجاحظ - ليبالغ في تصفح حاله ، ثم قال له بعد ذلك : (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم وقد خفت أو تكون منهم) قال الجاحظ : وما قال له ذلك إلا لما كان راعه من حسن منطقه ، وما ل إليه لما رأى من رفقه ، وقلة تكلفه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن من البيان لسحرا) .

وكان كلمات هذا الرياني ، وكلمات الجاحظ معه ، ومن قبلها كلمة رسول الله : (لا خلافة) ذهبت جميعاً إلى أن حسن البيان قد يكون وسيلة إلى الشر ، وقد يجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وبما يشير إلى ذلك قول مالك بن دينار : (ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ، إن كان ليرقى الخنبر ، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى أقول في نفسي : إني لأحسبه صادقا ، وإني لأظنهم ظالمين له) (١) .

وقد يقال : إن هذه النظرة من الجاحظ نظرة دينية ، فلا ينبغي أن تصلح مقياساً سليماً في الأدب ، وهذا فيه بعض الحق ، أما بعضه الآخر فإن لكل ناقد أن يشرع ما يشاء للنقد ، والجاحظ يرى أن الأدب ينبغي أن يظل في حدود الدين .

ومن حذر التعلق باللفظ - عند الجاحظ - الحيف على المعنى ، وفي ذلك يقول : (وشر البلاء من هيا رسم المعنى قبل أن يهوى المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يحجر المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً) (٢) .

وأشق ما يلقاه الأديب في تخيير اللفظ أن يضع كل لفظ في موقعه اللائق به ، وبهذا يتفاضل البلاء ، وقد ذكر الجاحظ أن القرآن الكريم يستعمل ألفاظاً دون ألفاظ ترادفها ، فثلاً لم يستعمل المطر إلا في موضع الانتقام ، ولم يستعمل الجوع إلا في موضع العقاب وهكذا ؟

، يتبع ،

(١) البيان ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) رسالة الملعين « هامش الكامل » ج ١ ص ١٧ .

من يمحوت مجمع اللغة العربية :

مبعم ألفاظ القرآن الكريم

ت ر ف

- (أترفناهم - أترفتم - أترفوا - مترفوها - مترفين - مترفيا - مترفيهم)
- ١ - الترف : التمتع ، يقال : ترف يترف من باب فرح - ترفا : تتمتع . وأترفه : أعطاه شمواته وأترفته النعمة : أبطرتة وأطفته ، واسم المفعول مترف .
- أترفناهم : (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم) ٢٣ / المؤمنون . أى نعمناهم بالوان التمتع من المال والولد والمساكن الطيبة .
- أترفتم : (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) ١٣ / الأنبياء .
- أترفوا : (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) ١١٦ / هود . وانظر اتبع في مادة (ت ب ع) .
- ٢ - والمترف : المتمتع المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها ، وجمعه مترفون . مترفوها : (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ٣٤ / سبأ و ٢٣ / الزخرف .
- مترفين : (لأنهم كانوا قبل ذلك مترفين) ٤٥ / الواقعة .
- مترفيا : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) ١٦ / الإسراء .
- مترفيهم : (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) ٦٤ / المؤمنون .

ت ر ق

(التراقي)

التراقي : أعلى الصدر وهي العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال جمع ترقوة.
التراقي : (كلا إذا بلغت التراقي) ٢٦ / القيامة ، أى بلغت الروح التراقي ،
وهو كناية عن قرب مفارقة الروح للجسد .

ت ر ك

(ترك - تركت - تركتم - تركتموها - تركن - تركنا - تركناها - تركه -
تركهم - تركوا - تركوك - تتركه - اترك - اتركوا - تتركون - يترك -
يتركوا - تارك - تاركوا آلهتنا - تاركي آلهتنا) .

ترك الشيء يتركه تركاً - من باب نصر ك - خلاه وانصرف عنه قصداً واختياراً
أو قهراً واضطراً ، فهو تارك وهم تاركون .

وتختلف التولية والانصراف باختلاف المقامات .

فيقال : ترك فلاناً أو مذهب فلان : إذا صد عنه وانصرف .

ويقال : ترك فلان مالا ، أى مات عنه وخلفه من بعده .

ويقال : قطع الشجر وترك النخل - مثلاً - أى خلاه على حاله فأبقاه .

ويقال : أجهز على أعدائه فسا ترك أحداً منهم ، أى فسا أبقى على أحد منهم ،
وأصله فسا خلى أحداً عن الإجهاد عليه .

ويقال : ترك في القوم أثراً ، أى خلاه فيهم وأبقاه .

وقد يضمن ترك معنى جعله على حالة ما وأبقاه عليها .

ترك : (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين
والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) ١٨٠ / البقرة ، أى أبقى خيراً بعد موته
وخلفه من بعده ، ومثلها ٢٤٨ / البقرة و ٧٧ مكرر ، ١١ مكرر ، ١٢ /

٣٣ / ١٧٦ مكرر ، / النساء . وفي قوله تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) ٦١ / النحل ، أى ما أبقي ، ومثلها ٥ / فاطر .

تركت : (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ٣٧ / يوسف ، أى صددت وانصرفت عنها ، وفي قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدم الموت قال رب ارجعون لى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) ١٠٠ / المؤمنون ، أى فيما تركته وانصرفت عنه من إيمان وعمل .

تركتم : (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركتم من بعد وصية يوصون بها أو دين) ١٢ / النساء مكرر ، أى متم عنه وخلفتموه بعدكم ، ومثلها ٩٤ / الأنعام .

تركتموها : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) ٥ / الحشر ، أى خليتموها ولم تتعرضوا لها فأبقيتموها على حالها .

ترككن : (فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) ١٢ / النساء ، أى متن عنه وخلفته بعدهن .

تركنا : (إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) ١٧ / يوسف ، أى خلياته ولم نأخذه معنا . وفي قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) ٩٩ / السكهف ، أى خلياتهم يموج بعضهم فى بعض . وفي قوله تعالى : (ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون) ٣٥ / العنكبوت ، أى أبقينا من هذه القرية آية بيّنة لمن يعتبر . وفي قوله تعالى : (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) ٧٨ / الصافات ، أى أبقينا له هذا السلام تحية وذكرى دائمة فى الآخرين ، ومثلها ١٠٨ / ١١٩ / ١٢٩ / الصافات . وفي قوله تعالى : (وتركنا فيها آية للذين يحافون العذاب الاليم) ٣٧ / الذاريات ، أى أبقينا فيها آية .

تركناها : (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) ١٥ / القمر ، أى جعلناها آية باقية .

تركة : (فثله كثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً) ٢٦٤ / البقرة أى خلاه صلباً أملس لا تراب عليه .

تركهم : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ١٧ / البقرة ، أى أبقاهم .

تركوا : (ولبخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليستقوا الله وليمروا قولا سديداً) ٩ / النساء ، أى ماتوا وخلقوا بعدهم . وفى قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) ٢٥ / الدخان ، أى خلفوا .

تركوك : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً) ١١ / الجمعة أى خلوك قائماً .

تركه : (فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) ١٧٦ / الأعراف أى سواء هيجته وأزعجته بالمرء الشديد أو خليته فأبقيته على حاله لم ترجعه .

ترك : (قالوا يا شعيب أصلانك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا) ٨٧ / هود أى نفارقه .

اترك : (واترك البحر رهواً لأنهم جند مغرقون) ٢٤ / الدخان ، أى خله منفرجاً باقياً على حاله .

تركوا : (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون) ١٦ / التوبة أى حسبتم أن تخلوا وتهملوا ولا تبذلوا بما يحصكم .

تتركون : (أتتركون فيما ها هنا آمنين) ١٤٦ / الشعراء ، أى أتخلون فى تنعمكم .

يترك : (أيعسى الإنسان أن يترك سدى) ٣٦ / القيامة ، أى يخلى مهملاً كالحيوان فلا يكلف ولا يجازى .

يتركوا : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون) ٢ / العنكبوت ، أى أظنوا أن يخلوا بلا فتنة واختبار اكتفاء بقولهم آمناً .

تارك : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) ١٢ / هود أى فعلك متخل عن تبليغ بعض ما يوحى إليك .

تاركوا آلهتنا : (ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ٣٦ / الصافات
أى منصرفون عنها .

تاركى آلهتنا : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) ٥٣ / هود ، أى ما نحن
بمنصرفين عنها .

ت س ع

(تسع — تسعا — تسعة — تسعة عشر — تسعون)

١ — التسعة : العدد المعروف يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر منفردا
ومركبا ومعطوفا .

تسع : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ١٠١ / الإسراء و ١٢ / النمل و ٢٣ ص .

تسعا : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) ٢٥ / الكهف .

تسعة : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) ٤٨ / النمل .

تسعة عشر : (لواحة للبشر عليها تسعة عشر) ٣٠ / المدثر .

٢ — والتسعون : العدد المعروف يستوى فيه المذكر والمؤنث .

تسعون : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) ٢٣ / ص .

تسعين : انظر مادة (س ن م) .

ت ع س

(تسعا)

تعمس تعمس — من بابى تعب ونفع : هلك : أو عثر فأكب على وجهه ،
والتعمس مصدر يطلق على الهلاك والعتار .

تعمسا : (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) ٨ / محمد .

تعالى : انظر مادة (ع ل و) .

(نقشہ)

ت ق ن

(اتقن)

أنتن الشيء إتقانا : أحكمه

أَقْنُ : (صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) ٨٨ / الفل .
التقوى : النظر مادة (و ق ي) .
الاتقى واتق : النظر مادة (و ق ي) .

ت ل ك

(ناك - نلکا - نلکم)

تلك : من أسماء الإشارة يشار بها للفردة المؤنثة ، كما يشار بها إلى الجمع الذي يعامل معاملة المؤنث ، وهو جمع التذكير وجمع المؤنث السالم ، ويقول النحاة : إن اسم الإشارة هو (تى) واللام للبعد والكاف حرف خطاب . وحرف الخطاب يتغير تبعاً للمخاطب ، فيقال فى مخاطبة المفردة : تلك ، وفى مخاطبة المثنى : تلكما ، وفى مخاطبة الجمع : تلكم أو تلكن ، وقد تستعمل الكاف وحدها مع مخاطب واحد أو أكثر .

تلك : (تلك أمانهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ١١١ / البقرة .
 ١٣٤ / ١٤١ / ١٨٧ / ١٩٦ / ٢٢٩ / ٢٣٠ / ٢٥٢ / ٢٥٣ / البقرة ، و ١٠٨ /
 ١٤٠ / آل عمران ، و ١٣ / النساء ، و ٨٣ / الأنعام ، و ١٠١ / الأعراف ،
 و ١ / يونس ، و ٤٩ / ٥٩ / هود ، و ١ / يوسف ، و ١ / ٣٥ / الرعد ، و ١ / الحجر ،
 و ٥٩ / الكهف ، و ٦٣ / مريم ، و ١٧ / طه ، و ١٥ / الأنبياء ، و ٢ / ٢٢ / الشعراء ،
 و ١ / ٥٢ / النمل ، و ٢ / ٥٨ / القصص ، و ٤٣ / العنكبوت ، و ٢ / لقمان .

و ٧٢ / الزخرف، و ٦ / الجانية، و ٢٢ / النعم، و ٤ / المجادة، و ٢١ / الخضر،
و ١ / الطلاق، و ١٢ / النزاعات.

تلكم: (وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة) ٢٢ / الأعراف .
تلكم: (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) ٤٣ / الأعراف .

ت ج ل

(نہ)

تله يتله — من باب قتل — تلاً : ألقاه على عنقه وخده .
ويقال : تله للجبين ، كما يقال : كبه لوجهه . أى ألقاه فوق جبينه على الأرض .
تله : (فلما أسلما وتله للجبين) ١٠٣ / الصافات .

ت ل و

(١) تلا فلاناً يتلوه كسماً يسمو - تلوا: تبعه .
يتلو - يتلون - يتلونه - اتل - اتلوا - لميت - تلى - تلى - تلاوته - التاليات)
(تلاها - يتلوه - تلوته - أتلى - أنلو - تتلو - تتلون - تتلو - تتلوه - تتلوا -

تلاها: (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) ٢/ الشمس، أى تبعها وجاء بعدها .
يتلوه: (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ١٧ / هود ، أى أفمن
كان على بصيرة من ربه ويتبعه ويؤازره على هذه الهداية شاهد من الله أو من
القرآن أو من نفسه كمن ليس كذلك .

(٢) وتلا الكتاب يتلوه تلاوة : قرأه فهو تال وهي تالية وهن تاليات .

تلوتہ: (قل لو شاء اللہ ما تلوتہ علیکم) ۱۶ / یونس .

أَتْلُ: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ) ١٥١ / الْإِنْعَام .

أتلو: (ويسألو نك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) ٨٢/الكهف ٩٢/النمل

تتلو: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) ١٠٢/ البقرة، أى نقرأه

في عهد ملكه ، ويصح أن تفسر تلو بمعنى تتبع ، فيكون المعنى : واتبعوا ما تتبعه

الشیاطین فی عهد ملک سلمان ، وأما الآیات ٦١ / یونس ، و ٣٠ / الرعد .

و ٤٥ / القصص ، و ٤٨ / العنكبوت فإنها بمعنى تقرأ .

تتلون: (أنأمر بون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) ٤٤ / البقرة .
تتلو: (تلو عليكم من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) ٣ / القصص .
تتلوه: (ذلك تتلوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم) ٥٨ / آل عمران .
تتلوها: (تلك آيات الله تتلوها عليكم بالحق وإنك لمن المرسلين) ٢٥٢ / البقرة
و ١٠٨ / آل عمران ، و ٦ / الجاثية .

يتلو: (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك) ١٢٩ / البقرة ،
و ١٥١ / البقرة ، و ١٦٤ / آل عمران ، و ٥٩ / القصص ، و ٣ / الجمعة ،
و ١١ / الطلاق ، و ٢ / البينة .

يتلون: (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب) ١١٣ /
البقرة ، و ١١٣ / آل عمران ، و ٧٢ / الحج ، و ٢٩ / فاطر ، و ٧١ / الزمر .
يتلونه: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ١٢١ / البقرة .
اتل: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) ٢٧ / المائدة ، و ١٧٥ / الاعراف ،
و ٧١ / يونس ، و ٢٧ / الشكف ، و ٦٩ / الشعراء ، و ٤٥ / العنكبوت
اتلوها: (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) ٩٣ / آل عمران .
تُتلى: (وإذا تلايت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ٢ / الأنفال .

تُتلى: (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) ١٠١ /
آل عمران ، و ٣١ / الأنفال ، و ١٥ / يونس ، و ٥٨ / مريم ، و ٧٢ / الحج ،
و ٦٦ / ١٠٥ / المؤمنون ، و ٧ / لقان ، و ٤٣ / سبأ ، و ٨ / ٢٥ / ٢١ / الجاثية ،
و ٧ / الأحقاف ، و ١٥ / القلم ، و ١٣ / المطففين .

يتلى: (قل الله يفتيكهم فيمن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء)
١٢٧ / النساء ، و ١ / المائدة ، و ١٠٧ / الإسراء ، و ٢٠ / الحج ، و ٥٣ / القصص ،
و ٥١ / العنكبوت ، و ٣٤ / الأحزاب .

تلاوته: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) ٢١ / البقرة ، أى قراءته .
التاليات: (فالتاليات ذكرا) ٣ / الصافات . هى جمع مؤنث من تلاه

بمعنى قرأ .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتجرى الحقيقة في الكلام عن عقائدها ، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للوادة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً في الشؤون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لسالح الحاكمين ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخرّوا - مع الأسف - بعض الأقلام في هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر في العقول أثرها ، وتعمل عملها فعلينا أن نفكر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الخذر والحيلة .

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : -

١ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس المقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٣	كلمة التحرير
٥	تفسير القرآن الكريم لفَضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى
٢٨	الدين في معترك القضاء لصاحب السامحة العلامة الأستاذ محمد تقى التمشى
٣٥	في القصص القرآنى للأستاذ أحمد الشايب
٤٣	سامحة الإسلام مع الأديان الأخرى للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وائى
٤٩	من ثمرات العقول والمنقول للأستاذ على الجنيدى
٦٣	حول دعاوى بعض المستشرقين ورجاء إلى علماء المسلمين للأستاذ الدكتور لبيب السعيد
٧٢	حكم تارك الإسلام وفاعل الخير بلا إيمان لفَضيلة العلامة الشيخ محمد جواد مغنية
٧٨	معالم التقريب للأستاذ محمد عبد الله محمد الحماى
٨٧	رأى في الدعوة الإسلامية من منظور جديد لفَضيلة الأستاذ عبد الرحمن محمد النجار
٨٩	البلاغة عند الجاحظ لفَضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن الهامى
١٠٢	معجم ألفاظ القرآن الكريم

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار الفكر بين الملائكة والإنسانية بالكويت

رمضان سنة ١٣٩٢ هـ - أكتوبر سنة ١٩٧٢ م

رئيس التحرير : على السبر الجندى • مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك في السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمناً، أو ما يكاد لها

مطبعة غيمر ت ٩٠١١٩٢